روايات عبير

مارغريت روم

هاربة!

٣١

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 31

هاربة!

رحلة العذاب عادة تبدأ بخطوة صغيرة تدفع الانسان الى متاهات مجهولة. ماريبل بدأت رحلتها من بلدها الضبابي بريطانيا بجواز سفر صديقتها شارون للقاء خالتها صوفي في بولونيا فأنتهت في عربة زعيم الغجر المدعو روم بورو الذي خلصها من قبضة الشرطة. ولم يستطع انقاذها من شعورها بالمذلة حين دفع ثمنها بضع قطع ذهبية ليتزوجها حسب تقاليد قبيلته.

ترى هل تستطيع ماريبل الهروب من روم بورو كما هربت بجواز سفر مزور؟ ام ان الوقوع في حب هذا الغجري افضل من وقوفها وراء قضبان السجن؟

١ ـ لقاء الجذور

توقفت ماريبل على الرصيف الأوسط للشارع تعزلها عن الجانب الآخر حركة المرور المسرعة وأبواق السيارات الصاخبة، ونظرت إلى المباني المحيطة بها: اذاً هذه هي وارسو! المدينة التي وصلت إليها بعد مشاق ومخاطر عديدة. أعصابها كانت لا تزال تهتز كلما أطلقت لنفسها عنان التفكير في الاحتمالات التي يمكن حدوثها.

كانت الخدعة أول الأمر تبدو بسيطة، لا ضرر منها. حين عثرت شارون، زميلتها في السكن، وأعز صديقة لها، على وظيفة مع فريق من الراقصات يعمل في النوادي الليلية في جميع أنحاء أوروبا. وصلت ماريبل متأخرة على موعد المقابلة المخصصة لاختيار الراقصات. وبرغم أعذارها لم تنجح في تغيير الواقع، وهو أن جميع الأماكن الخالية في الفرقة شغلت، وأن الادارة لم تعد تهتم بمزيد من المقابلات رغم تشوّق المتقدمات لزيارة أوروبا. وقبل مضي ٢٤ ساعة على موعد سفرها، انزلقت شارون في الشارع وسقطت ، مما تسبب بكسر عدة عظام في قدمها، وعندما زارتها ماريبل في المستشفى نظرت إليها بابتسامة ضعيفة وهي تحمل لها حقيبة بما ستحتاج إليه في المدة التي علمت أنها ستطول في المستشفى.

وتنهدت شارون وقد تغلب القلق على آلامها وهي تقول:

«من الذي سيحلّ محلي في فترة وجيزة كهذه؟!»

فطمأنتها ماريبل وهي تقول:

«سيعثرون على غيرك. فكثيراً ما تقع الحوادث للراقصات أكثر من

سواهن هكذا يقول إليّ. فلا تخافي يا عزيزتي، فلا بد أن لديهم أسماء احتياطية في سجلاتهم».

وحاولت أن تصرف ذهن شارون عن هذه المشكلة بتغيير الموضوع إلاّ أن جبين صديقتها ظل مقطباً من القلق بالرغم من ردها على استفسار ماريبل عن كيفية وقوع الحادث.

وفجأة قالت شارون بطريقة تلقائية وهي تقاطع كلام ماريبل - التي كانت تستنكر إهمال الناس بتركهم الشحم يتسرّب من سياراتهم على الأرض، معرّضين بذلك المشاة للخطر، مما ادى الى انزلاقها:

«ماذا لا تحلّين محلي؟»

وفتحت ماريبل فمها من الدهشة. ولكن الصمت الذي تبع ذلك كان مليئاً بالأسئلة. وأخيراً تمتمت قائلة:

«كيف أستطيع أن أفعل ذلك؟»

كانت عيناها تنمّان عن حاجتها إلى أن يطمئنها أحد ويرشدها إلى طريقة تمكنها من الوصول إلى ما تصبو إليه.

فجلست شارون فجأة وقد نسيت ضرورة الحذر من الحركة نظراً لحالة قدمها وقالت:

«تستطيعين بكل سهولة، إن السيدة غلوري المسؤولة عن الفرقة تعرفنا جيداً، لكنك تعرفين أيضاً كيف تنسى الأسماء والأشخاص بسرعة. فكثيراً ما خلطت بيننا عندما عملنا معها في الماضي، ولن تكون مشكلة بالنسبة الينا إذا خدعنا تلك السيدة العجوز».

فأومأت ماريبل برأسها للدلالة على موافقتها على فكرة صديقتها، إلاّ أن تعبير وجهها حمل معنى التردد وهي تعترض على

رأيها:

«لكن هناك أنطوني جيمس، سيعرفني وسيفهم أنني غريبة عن الفرقة». استخفت شارون بتعليق صديقتها وقالت:

«أنطوني جيمس! إن كل اهتمامه منصب على سيقان الراقصات، فبرغم أنه قام بمهمة الاختيار وله الرأي الأخير في الاختيار لكنه لا يعرف الوجوه أبداً».

فضحكت الفتاتان من هذا الوصف الذي ينطبق على ذلك الرجل المعروف بشغفه بالسيقان الطويلة. واستمرت الفتاتان في مزاحهما بحيث لم يكن في وسعها التفكير السليم أو الجاد، فكثيراً ما سمعتا جيمس يقول إن اللاتي تقبلهن الفرقة هن الفتيات الانكليزيات الشقراوات ذوات السيقان الطويلة.

وفجأة تلاشى الضحك وتلاشى الأمل المتصاعد عندما تذكرت ماريبل أن ليس عندها جواز سفر. وأخذت الفتاتان تفكران بقلق في هذه المشكلة الجديدة. وبدا الأمر وكأنه بسيط بمجرد جواز سفر، يمكن الحصول عليه بسهولة. لكن لم يكن هناك متسع من الوقت. وقلّلت الفتاتين عناد وتحدٍ، وتبرمتا من القيود الروتينية الرسمية وقد عبرت شارون عن ذلك قائلة لصديقتها:

«تباً للقيود! استخدمي جواز سفري فنحن متشابهتان بحيث يمكننا استعمال نفس الصورة ويمكن التأثير على السيدة غلوري لتقنيعك على أنك شارون شين. هيا افعلي هذا وأراهنك على نجاح الفكرة، طالما كنت تتمنين زيارة خالتك في وارسو».

وهكذا وجدت ماريبل نفسها في الدولة التي علمتها أمها أن تحبها عن طريق وصفها لها. فكانت كطفلة تتخيل نفسها وهي تصحب

والدتها في زيارتها لمنزل الأسرة الكبير في الميدان الذي قضت فيه طفولة سعيدة مع والديها وأختها الصغرى صوفي، التي كانت والدتها تؤكد بأنها تتصف بالحيوية الجامحة. وبينما كانت ماريبل تتجول في الشارع بدون أن تلتفت للمرور إطلاقاً، كانت تذكر ملامح أمها الحبيبة، فحتى تلك اللحظة، أي بعد انقضاء ستة أشهر على وفاتها، لم تتقبل ماريبل فكرة عدم سماع ذلك الصوت العذب الهادىء، وعدم إمكانها تبادل الذكريات الحلوة والمرة معها عن تلك المدينة التي أحبتها، وعن والد ماريبل الذي أحبته الأم، منذ أول لقاء لهما. ومما زاد من ارتباطها به وقوع الحرب وكان تشارلز مور قد درس الحقوق في جامعة انكلترا وأتاحت له المنحة الدراسية التي حصل عليها أن يتابع دراسته في أوروبا. ولما كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالنظام القانوني في بولندا، قرر أن يقضيَ كل المدة المحددة لبعثته الدراسية في وارسو. وبمجرد وصوله إليها تعرّف على إيفا، الفتاة التي أصبحت فيما بعد زوجته. وفي غضون ستة أشهر من السعادة والهناء نما حبهما وازدهر في المدينة التي كانت تردد ألحان شوبان العاطفية معتبرة موسيقاه نبضاً للشاعرية الهادئة في ألحان أعظم أبنائها. وفجأة وقعت بولندا فريسة للغزاة. وحاول تشارلز أن يهوّن من مخاوف إيفا التي شعرت بعدم قدرتها على التكيّف في وطن جديد واحتياجها لفراق أسرتها. ولما كان ولاؤه مرتبطاً بوطنه وولاؤها مرتبطاً به هو، أصرّ على أن تبقى بجواره لتوفر له الراحة والحب، اللازمين للرجل الذي يخوض غمار الحرب، وبطريقة لا تعرفها ماريبل، فرّ الزوجان إلى انكلترا حيث انضم تشارلز إلى السلاح الجوي في وطنه. إلا أن زواجهما السعيد لم يطل به الأمد فانتهى بعد

سنة واحدة بوفاة الزوج في العمليات الحربية تاركاً وراءه أرملة شابة في بلد غريب ومعها طفلة رضيعة.

وفجأة صحت ماريبل من تأملاتها وذكرياتها على صوت آلة تنبيه سيارة يقودها شخص عصبي، فأسرعت في خطاها لتبتعد عن طريقه. وبينما هي سائرة انتابتها نوبة من خيبة الأمل. ألم يبق شيء من المدينة الساحرة التي أحبها والداها؟ بدا لها أن الموسيقى الوحيدة الباقية هي وقع الأقدام على الأسفلت الصلب. أما أقرب شيء للشعر فكان السجع المكتوب على اللافتات المهملة. وأدركت الحقيقة وهي عدم وجود أي شيء ساحر في تلك المدينة على الاطلاق. وهزت كتفيها ونظرت إلى الورقة التي كانت تطبق يدها عليها. وحسب الوصف الذي أعطي لها، كان العنوان المكتوب في الورقة على مسيرة عشرة دقائق من حيث كانت.

ومما أثار دهشة ماريبل اكتشافها أن العنوان الذي معها كان عنواناً لمصنع. ومع ذلك اجتازت البوابة ومشت بين جموع النساء اللاتي كن في طريقهن إلى الكانتين لتناول وجبتهن. وأخيراً لمحت مكتباً بدا لها وكأنه مخصص للاستقبال، فدخلته وهي ما زالت ممسكة بالورقة المدوّن عليها العنوان وكأنها وثيقة مرور تبيح لها الدخول. فسألها شاب باللغة البولندية وهو ينظر إليها بدهشة:

«هل من خدمة أسديها إليك؟»

فردت عليه قائلة وهي تحمد الله على بعد نظر والدتها وإصرارها على تعليمها تلك اللغة التي أتقنت الكلام بها بطلاقة:

«نعم... أريد خالتي صوفي باروسكا وقد أعطي لي هذا العنوان فإذا كانت تعمل هنا، أرجو أن تسأل لي عن الموعد الذي تنتهي فيه من

عملها حتى أنتظرها في الخارج».

فارتجفت شفتا الشاب وهو يقول لها:

«لا داعي لذلك، فخالتك هي إحدى مديرات المصنع ويسيئها أن تترك ابنة شقيقتها تنتظر في الخارج، فإذا تبعتيني سأصحبك إلى مكتبها».

وتبعته الفتاة وهي مشدوهة في صمت صاعدة وراءه السلم. كانت والدتها قد اعطتها فكرة عن صلابة رأي خالتها. أما أن تكتشف أن شقيقة والدتها الرقيقة اللطيفة هي رئيسة لقطاع صناعي فهذا ما لم تتوقعه إطلاقاً. ومع ذلك تمالكت مشاعرها المضطربة وقالت للشاب وهو يمد يده ليفتح مقبض الباب:

«أرجو ألا تعلن حضوري فإني أريد أن أفاجئها بزيارتي».

وبالأدب البولندي المعروف احترم رغبتها وصك كعبي حذائه معاً وانحنى لها قائلاً بابتسامة تنم عن فهمه لموقفها:

«كما تريدين».

وانتظرت ماريبل حتى وصل الرجل إلى نهاية السلم قبل أن تقرع على زجاج الباب المؤدي الى المكتب. وعندما سمعت الاذن لها بالدخول عبرت عتبة الحجرة وأغلقت الباب وراءها بحذر، ورأت سيدة جالسة وراء مكتب كبير وهي منهمكة في أكداس الأوراق التي أمامها. ولما لم تلتفت إليها بمجرد دخولها، انتظرت ماريبل وقد أطبقت يديها بشدة من القلق. وأخذت ماريبل تتأمل تلك السيدة وتحاول أن تجد تشابهاً بين والدتها الرقيقة ذات العينين الهادئتين وبين تلك السيدة التي تجلس امامها.

وقالت في نفسها إن أمها لا تستطيع ابداً القيام بهذا العمل الذي تقوم به خالتها بالكفاءة البادية عليها. والغريب أن وظيفة إدارة

المصنع كانت تلائمها أكثر من ملاءمتها لأي رجل يقوم بالعمل نفسه.

وتنبهت من تأملاتها على صوت خالتها وهي تقول لها:

«الآن وقد انتهيت من التأمل في شخصي بهذه الدقة، هلا أخبرتني عما تريدين؟»

ووقفت السيدة لتدور حول المكتب ثم استندت إلى أحد أركانه بينها أخذت تبحث عن الثقاب لتشعل سيكارتها.

وكان ثوبها الصوفي الرمادي يصل إلى حافة حذائها الطويل المصنوع من الجلد الرقيق الناعم. وكان يلتف حول خصرها الدقيق حزام أحمر يضاهي لون الغلالة الحريرية المعقودة تحت ياقة ثوبها بأناقة وحنكة، وقد أشارت ملابسها الى أنوثتها الراقية التي لم يسلب نجاحها في العمل شيئاً منها.

ولما حانت ساعة التعارف وجدت ماريبل صعوبة كبيرة في النطق. ومع ذلك سعلت قليلاً لتساعد صوتها على الخروج من حلقها وقالت بعد أن رأت خالتها وهي تقطب جبينها تبرماً بموقفها:

«أنا ماريبل مور، ابنة أختك، قادمة من انكلترا، وسبق لي أن أرسلت لك خطاباً عندما توفيت والدتي لكنك لم تردي عليه».

وجاء دور خالتها في البحث عن كلمات تقولها، فبدت عليها الدهشة والشك بينما انتظرت ماريبل بقلق شديد رد فعلها الذي جاء فجأة، اذ انبعثت منها شهقة عميقة مشحونة بالمشاعر القوية ومدت إليها ذراعيها لتحتضنها بلهفة وهي تقول:

«ابنة إيفا! ابنة أختي الحبيبة».

وجرت ماريبل إلى ذراعي خالتها الممدتين نحوها. ولفترة دقائق، اختلطت الضحكات بالدموع وجمعت بينهما روابط الحب الأسرية.

حينئذ اختفى تماماً قناع صوفي المتغطرس، عندما أمسكت ماريبل على بعد ذراعيها لتتأمل ملامحها بتمهل باحثة عن التشابه الموجود بينها وبين أختها الكبرى التي أحبتها حباً كبيراً. وقفت تقول:

«نعم، أراها فيك، ورثت عنها شعرها الفاتح وعينيها الرماديتين وملامح وجهها الدقيقة. كما تشبهينها في قوامك المشوق الرشيق».

ثم أمالت ذقنها بأصابعها الرقيقة وقالت:

«ومع ذلك أرى في هذا الفم أثراً للعناد الذي لا بد ورثته عن والدك. إذ لم يستطع غير والدك بإرادته القوية أن ينجح في إبعاد شقيقتي العزيزة عن كل ما اعتادت عليه وأحبته لتواجه الحياة في بلد غريب عليها».

فقالت لها ماريبل وقد لاحظت عنف كلمات خالتها، محاولة الوقوف موقف المدافع عن سمعة أبيها:

«لقد ربط بينهما حب شديد».

وردت عليها خالتها بسرعة قائلة:

«أعلم ذلك، كما يعلم الجميع أن كلاً منهما كان ملائماً للآخر. وكان حبهما كالمصباح الذي أضاء تلك الأيام التعيسة وألقى نوراً على المحيطين بهما. لذلك كان الجميع على استعداد لمساعدتهما على الفرار. وعندما تسرّب إلينا خبر وصولهما سالمين إلى انكلترا، أقيم احتفال أذهل الألمان فتحيروا من أمرنا، وحاموا حولنا يحاولون معرفة سبب هذه الأفراح».

وضحكت الخالة عندما استعادت هذه الذكريات وشاركتها ماريبل في ضحكها ولكنها شعرت بغصة في حلقها. لقد كان سلوك خالتها لطيفاً إلا أنها شعرت بأنه مفتعل، وكأن الذكريات التي

تستعيدها لم تكن كلها سعيدة.

وأخيراً قالت ماريبل:

«لماذا لم تردي على خطابي يا خالة صوفي؟ كتبت إليك بمجرد وفاة والدتي لشعوري بأن هذه رغبتها. ولما لم أتلق منك رداً بدأت أقلق، وافترضت أنه ربما اعترضت الرسالة ظروف منعتها من الوصول إليك، مثل تغيير العنوان أو ضياعها في الطريق. ولم أتحمل فكرة جهل الفرد الوحيد الباقي على قيد الحياة من اسرة امي بخبر وفاتها».

وكانت يدا صوفي ترتجفان من الانفعال وهي تمد يدها لتأخذ سيكارة أخرى من علبتها، محاولة تفادي نظرة ماريبل المتسائلة. ولم يفلح الدخان المتصاعد من فمها في إخفاء نظرتها التي تدل على الخجل والقلق. وأخيراً قالت وهي تحاول الاعتذار عن تصرفها وتبريره:

«آسفة لعدم ردي عليك. والواقع كنت أنوي الرد. لكن الخبر أزعجني في بادىء الأمر فبقيت أياماً لا أقوى على شيء غير استرجاع الأشياء الصغيرة التي أذكرها عنها. طريقة بريق عينيها عندماتبتسم، وروحها المرحة، وخفة ظلها، وحرصها على مساعدة المتعبين. كنت في طور المراهقة عندما غادرت الوطن إلى انكلترا إلا أن روابط العاطفة بيننا ظلت قوية حتى صدمني موتها صدمة شديدة».

وارتجفت شفتا ماريبل من التأثر، وكانت على استعداد لقبول شرح خالتها واعتذارها بدون الحاجة إلى المزيد من الكلام، إلا أن صوفي رأت أن تسترسل في كلامها، فامتقع لون وجنتيها وهي تضغط على نفسها لتكون صريحة مع الفتاة ذات العينين الرماديتين اللتين تشبهان عيني شقيقتها. لذا تلعثمت في كلماتها واعترفت قائلة بصوت خافت:

«غضبت في قرارة نفسي من والدك لقيامه بما اعتبرته في ذلك الوقت عملية اختطاف لشقيقتي، ومرت علىّ أوقات لمته فيها بمرارة على الوحدة القاسية، والأسى القاتل اللذين عانيت منهما. واشتد شعوري هذا فكرهت ذكراه حتى بعد موته».

وشهقت ماريبل من الكلمات المؤلمة، وأخيراً اعترفت الخالة قائلة:

«كنت مخطئة وعرفت ذلك الآن. كان في وسع إيفا العودة إلى وارسو بعد الحرب لكنها رفضت ذلك قائلة إنها وجدت في انكلترا عزاء في المنزل حيث أقاما. وحينئذ فقط بدأت أدرك شيئاً عن مدى حبهما لبعضهما».

وتراجعت ماريبل خطوة إلى الوراء وحدقت بعينين ملأهما الألم وقالت تدين خالتها:

«كنت تشعرين بالغيرة من أختك ولم تهتمي بالكتابة إليّ لأنك شعرت بأنني أنا أيضاً استحوذت على مكانتك في حب والدتي. ظللت سنوات اتفادى مقابلتك، خاصة بعد موت والدتي لأنني ظننت بسذاجتي أن وجودك قد يساعدني على تحمل فراقها، ولكن الآن...»

وسكتت ماريبل عما كانت تود أن تضيفه من عتاب لخالتها. واستدارت متجهة نحو الباب، ثم توقفت عند عتبته عندما توسلت إليها خالتها قائلة والدموع واضحة في عباراتها:

«إنني أستحق الازدراء يا ماريبل وأعترف بكل الكلمات التي صدرت منك، فأرجو أن تصدقيني عندما أقول إنني آسفة، وأن تحاولي العفو عني».

ولو لم تكن ماريبل ابنة أمها لما استسلمت لهذا النداء الصادر من القلب، فقد آلمها استعداد خالتها لتجاهل وجودها، لكنها كانت

تشعر بالوحدة، فلم تستطع الاستغناء بسهولة عن حاجتها للحب التي أظهرته خالتها نحوها في تلك اللحظة.

وبعد تراجعت ماريبل من الباب، وأدارت وجهها نحو خالتها، ثم ارتمت في أحضانها مبدية بذلك عفوها عنها.

٢ ـ بداية الهرب

كان منظر نادي عقد الورد حيث ستفتتح الفرقة عملها، متواضعاً عادياً في وضح النهار. إلا أن ماريبل لم تلحظ منظر واجهته الكئيبة عند دخولها بسرعة من الباب الخلفي وهي مشغولة البال بمشكلة تأخيرها في الحضور. فبالرغم من بساطة السيدة غلوري في بعض الأمور إلا أنها حاسمة فيما يتعلق بالعمل. أما بخصوص الأعذار بسبب التأخير فكانت تقابلها باستياء شديد، بل توقع الغرامات في بعض الأحيان.

ولحسن الحظ كان الموعد المحدد لظهور فريق الراقصات هو في الليلة التالية. أما في تلك الليلة، فكانت للفتيات الحرية في التصرف في وقتهن والقيام بأي شيء يحلو لهن، في حدود المعقول طبعاً، وبالرغم من نصح السيدة غلوري لهن بالنوم المبكر إلا أنهن صممن على حضور الحفل النهائي لنجم الفرقة الذي كان يجذب إلى المسرح جموعاً كبيرة من المتفرجين في الستة أسابيع السابقة.

وكانت غرفة تغيير الملابس خاوية حين وصلت ماريبل إليها. وعندما سمعت صوت البيانو آتياً من جهة المسرح تأكدت مخاوفها وعرفت أن التمرين قد بدأ بدونها. وبسرعة فائقة بدأت في ارتداء ملابس التمرين ثم قطبت جبينها حين تذكرت أن هناك مواضيع كثيرة يجب بحثها مع خالتها وذكريات تحتاج إلى مراجعتها معها. إذاً لماذا صممت خالتها على عودتها إلى النادي الليلي بدلاً من البقاء معها والتحدث إليها؟

«أخيراً قررت أن تشرفينا بحضورك؟»

هكذا قالت السيدة غلوري فانتفضت ماريبل من الدهشة عندما انفتح الباب فجأة وظهرت فيه تلك السيدة، ووقفت بعصبية على العتبة وبسرعة قدمت لها ماريبل اعتذارها قائلة:

«إنني جد آسفة يا سيدتي، حاولت الحضور في الموعد المحدد لكنني ضللت الطريق. أعدك ألا أكرر ذلك مرة أخرى. ومع ذلك فقد تأخرت دقائق معدودة فقط».

وصدرت منها تنهيدة تنم عن ارتياحها عندما لاحظت أن ملامح السيدة غلوري لانت بعض الشيء. فقد كانت السيدة غلوري نفسها عضواً في فريق دولي للرقص، وكانت تعرف مدى انبهار الراقصة المبتدئة بالمدن الجديدة.

«لا بأس يا شارون، سأسامحك هذه المرة بشرط ألاّ يتكرر ذلك مرة أخرى. أتفهمين؟»

وبحرج أومأت ماريبل رأسها للتعبير عن موافقتها. وكعادتها دائماً كانت ترتجف من الداخل كلما ناداها أحد باسم شارون. فكان الخداع الذي تمارسه على رئيستها الجديدة الطيبة كريهاً على نفسها.

وامتدت التمرينات طيلة بعد الظهر، وكانت السيدة غلوري في أثنائها بادية التذمر من أداء الراقصات، كما كانت حريصة على ضرورة اتباعهن للحركات المطلوبة. لذا كان الاجهاد بادياً على الفتيات عندما انتهت فترة التمرين واشتدت رغبتهن في الوصول إلى غرفهن في الفندق القريب لاراحة أقدامهن المتعبة قبل الخروج ثانية في المساء للترفيه والنزهة.

وكانت ماريبل محظوظة، فبينما هي تخلع حذاءها وتستلقي على سريرها للاسترخاء، حمدت ظروفها التي لم تعطها زميلة في الغرفة

تضايقها بثرثرتها الدائمة. لأنها في حاجة إلى التفكير في مسائل كثيرة تدور في ذهنها وتحتاج إلى تنسيق حتى تقدمها إلى خالتها حسب تسلسل أهميتها.

وأفاقت منزعجة على مظهر غرفتها وقد أخذ الليل يرخي عليها سدوله وخافت أن تكون قد تأخرت في النوم. وبسرعة نظرت إلى ساعتها وأدركت أن لديها عشرين دقيقة فقط تستعد فيها. فجرت ماريبل إلى الحمام وفتحت الدش واختطفت بعض الملابس الداخلية من أحد الأدراج وأخذت تعقص شعرها وتضعه تحت طاقية الحمام ثم قلبت في خزانتها لأختيار الملابس التي سترتديها في الخارج. وأخيراً وصلت إلى النادي الليلي قبل الموعد المحدد بدقائق وقد بدت عليها الأناقة والمظهر الجميل فمشت بخطوات متمايلة بغير كلفة أو تصنع. ووقفت سيارة خالتها أمام الباب في نفس الوقت الذي وصلت هي فيه إليه، ونزلتا معاً الدرجات الحجرية المؤدية إلى القبو الكبير الذي جرى تطويره إلى ناد ليلي.

وعندما دخلتا إلى النادي استقامتا من الضوضاء الصادرة من الطاولات المزدحمة بالرواد والملتفة حول حلبة الرقص الصغيرة.

وكانت اللوحات الزاهية تغطي الجدران بينما التفت عقود النباتات حول زجاجات الشراب الحمراء والخضراء المعلقة على الجدران بطريقة تعكس ضوء الكرة السحرية الدائرة والمعلقة في سقف القاعة. وكان الخدم، يدورون بمهارة وخفة حول الموائد التي يجلس حولها الضيوف وعيونهم مثبتة على حلبة الرقص وهم يحتسون شراباً يكفيهم مدة طويلة. وكانت الموسيقى تعزف وتهيىء خلفية ملائمة للمكان بألحان خافتة تنقل وروح الترقب المخيمة على الجمهور.

وفجأة أطفئت الأنوار تاركة حلقة من النور مسلطة على منتصف حلبة الرقص، وهدأ الجمهور والتزم الصمت ثم انفجر في تصفيق عصبي عندما انسل رجل من الظلال المحيطة بالحلبة وظهر وسط حلقة النور. ولم تكن هناك مقاعد خالية في القاعة. وكان مكان الوقوف مكتظاً بالناس لذا كان من حظ ماريبل وخالتها أن يسمح لهما بالوقوف في مقدمة الدائرة الخارجية للمتفرجين. وحتى من تلك المسافة شعرت ماريبل بقوة شخصية الرجل. فمن قمة رأسه ذات الشعر الأسود الفاحم حتى قدميه، ومن كل عضلة قوية في جسمه كانت تشع جاذبية فطرية بوهيمية.

وبدون مبالاة بالأعين المتعلقة بكل حركة من حركاته سحب كرسياً صغيراً ووضع قدمه عليه ثم أسند منكبه فوق ركبته المرفوعة. وببساطة أخذت أنامله الدقيقة تداعب أوتار القيثار المعلق في رقبته برباط أحمر زاه من الشاموا. وكان نفس اللون يتكرر في الغلالة التي يلبسها الغجر حول رقابهم القوية. وكان يلبس قميصاً أبيض من الحرير له أكمام منفوخة ومزمومة عند المعصمين، وللقميص فتحة مدببة من أسفلها تصل إلى الحزام الأحمر العريض الذي يطوق خصره. ويكمل ملبسه بنطلون أسود ضيق قد يبدو على غيره كأنه بدعة تمثيلية لكنه يجعله يبدو غجرياً أصيلاً ذا كبرياء وشمم.

وأخذت أنامله الرقيقة تعزف الألحان. وبعد أن جال بنظرته الساخرة بعض الشيء، حول جمهوره المتحمس له، بدأ في عزف لحن عاصف جميل أثار به المشاعر. ولمدة ثلاثين دقيقة لا تنسى استجاب لرغبات المستمعين. وبدا أثر غنائه على المستمعات فأثارهن بسحره ودفعهن إلى الانفعال لدرجة البكاء، كما أثر على الرجال ودفع الدماء في عروقهم.

والذكريات الحلوة تجول في مخيلتهم عن مواقف وغزوات كلها حب وقوة ومجد. وعندما بلغ بهم الانفعال ذروته حرمهم من سحر فرحتهم، وسلبهم نشوتهم، بالانتهاء فجأة من أغانيه والانسحاب من حلقة النور.

وقف الجمهور على أقدامه مطالباً بمزيد من الأغاني. وبلغ الحماس الذروة عندما عاد الرجل للظهور ثانية، وتوقف برهة وقد رفع حاجبيه بكبرياء وبدت حركة مرتجفة حول شفتيه وانتظر حتى هدأ الصخب وخيّم السكون على المكان. ثم انحنى من خصره وحيا الجمهور مودعاً إياه بلغة الغجر قائلاً:

«والآن أترككم في رعاية الله».

ولم تهدأ عاصفة التصفيق إلا بعد بضعة دقائق استطاع الجمهور بعدها أن يتابع الحديث فيما بينه. وانتظرت ماريل وكلها تساؤلات. ومع ذلك ضغطت على مشاعرها بشدة بحيث بدت اللهفة في صوتها عندما سألت خالتها قائلة:

«من هو يا خالتي صوفي؟»

وابتسمت الخالة وقالت:

«اسمه روم بورو وهو نجم دولي من نجوم النوادي الليلية المشهورين والمحبوبين من الملايين في جميع أنحاء أوروبا».

وقطبت ماريل جبينها وقالت:

«ولماذا لم أسمع به قبل الآن؟ فلندن هي مركز أصحاب المواهب من أمثاله. وحسب معلوماتي لم يظهر هناك مطلقاً».

«لا أظن أنه يريد الذهاب إلى هناك إلا إذا شعر برغبة أكيدة في ذلك. فهو يعمل فقط في الزمان والمكان اللذين يحلوان له. انه غجري أصيل من الذين لا يعرفون حدوداً. كل دولة هي دولتهم وهم يحتقرون فكرة

الحدود التي تفصل بين الدول. قد يظهر في باريس أسبوعاً ثم ينتقل إلى بودابست لمدة أسبوع آخر وبعدها بقليل يظهر في روما. حاول مديرو النوادي الليلية في أوروبا أن يأخذوا منه الوعود للظهور لديهم في تواريخ محددة، لكنه يرفض كل هذه العروض. فالغجر دائمو الترحال و روم وفيّ لقبيلته مائة في المائة، وأفراد قبيلته أوفياء له. كما يدل على ذلك معنى اسمه روم بورو أي الرجل العظيم. وهو تكريم من جنس يؤمن بأن كل إنسان حرّ ويعترف بصفات الرجال العظماء، ويمدح البارزين منهم».

وانتظرت الخالة لحظة لتعطي ابنة أختها الفرصة كي تستوعب ما قالته قبل أن تضيف قائلة:

«هل تريدين التعرف اليه؟»

وانتاب ماريل ذهول من شدة السعادة التي تركها البرنامج المثير في نفسها، واحتاجت لبعض الوقت لتتمالك نفسها وتستوعب معنى سؤال خالتها. وعندما ردت عليها كان احمرار وجهها ولهفتها للقائه أكبر دليل على رغبتها في الاستجابة لخالتها التي ابتسمت وقالت:

«تعالي»

ومشت أمامها في طريقها إلى الكواليس، ومرّتا بين المناضد المكتظة بالمشاهدين الذين تباطأوا في ترك ذلك الجو المفعم بالنشوة والحماس، وكادتا تصلان إلى الباب المؤدي إلى غرفة ملابس الفنان عندما سمعتا صوتاً ينادي صوفي. وكان عالياً قوياً متمشياً مع مظهر صاحبه. وهو رجل طويل القامة يلبس زي ضابط روسي ذي رتبة عالية، انتصب واقفاً وانحنى احتراماً لها بينما أخذت عيناه تلتهمان كل تفاصيل مظهر

ماريبل...

ارتبكت صوفي لوجوده وقالت:

«لم أتوقع أن أراك هنا هذه الليلة يا سيرجي».

وبدا الحرج في صوت صوفي عندما واصلت كلامها قائلة:

«أقدم لك يا ماريبل صديقاً حمياً لي هو الرفيق إيفانوف الذي سبق أن عاونني كثيراً في الماضي وحلّ لي كثيراً من المشاكل المتعلقة بالقوانين الصارمة الخاصة بإدارة المصنع».

وكانت كلمات المجاملة التي قالتها صوفي توحي لماريبل بالحذر الذي لم يفت عليها. إذ بدت صوفي خائفة من ذلك الرجل الذي تشبه نظرته نظرة الحية. كما كانت نظرة صوفي تحذّر ماريبل بألا يكون رد فعلها مجافياً له.

وللأسف تجمع طيش الشباب مع التربية المتحررة التي اعتادت عليها ماريبل، ولم تعجبها غطرسة الرجل، لذا كانت التحية بينهما باردة ومختصرة. فبدت على ملامحه علامات عدم الرضى، إذ اعتبر أن كرامته قد أهينت. ولم يخفف الموقف قول صوفي وهي تبدد الصمت الذي ساد بينهما:

«هذه هي ماريبل ابنة أختي وهي انكليزية».

وعضت الخالة على شفتيها عندما شعرت، من الدهشة التي ارتسمت على وجه ماريبل، أن عبارتها بدت وكأنها اعتذار.

«الآن وقد انتهى العرض يا عزيزتي. شارون أرجو أن تنصرفي وتأوي إلى فراشك مبكرة».

قالت ذلك السيدة غلوري وهي تجمع فريق راقصاتها وتحرص على مصلحتهن. ولم تلحظ وقع القنبلة التي فجرتها بدون قصد.

وتساءل سيرجي بيقظة واهتمام يعتبر أكثر من حب استطلاع:

«شارون؟»

«إنه اسمي المسرحي».

هكذا أسرعت ماريبل في تصحيح الخطأ الذي أحرجها وفضح سرها. لكنها لم تفلح في إخفاء خوفها الذي بعث قشعريرة باردة في كل أجزاء جسمها. وقبل أن تضيف السيدة غلوري شيئاً إلى كلامها وتفصح عن المزيد من سرها قالت ماريبل:

«اعطني مجرد عشر دقائق أنصرف بعدها».

ووافقت السيدة العجوز على طلبها فأومأت برأسها وانصرفت باحثة عن غيرها من الراقصات وتبعتها ماريبل وهي تقول لخالتها:

«لا تتأخري يا خالة صوفي، فليس لديّ وقت طويل».

وعندما لحقت بها الخالة بعد ذلك بثوان كانت ترتجف من الخوف والغضب.

وكان باب إحدى غرف الملابس الخالية مفتوحاً فدفعتها صوفي داخل الغرفة وقالت:

«والآن أرجو أن تشرحي لي موقفك».

وأسندت الخالة ظهرها إلى الباب المغلق وقالت وقد تملكها الغضب:

«تكلمي!»

إلا أن ماريبل هزت كتفيها، إذ شعرت أن الحقيقة ليست بالفظاعة التي تصوّرها خالتها نفسها، ولم تر مانعاً من إطلاع خالتها على القصة التي دبرتها الصديقتان معاً كمخرج لموقفهما من العمل في الفرقة.

وعندما انتهت من سرد قصتها امتقع وجه الخالة بشكل جعل

الخوف يسيطر على ماريبل خاصة عندما قالت خالتها:

«أيتها البلهاء المتهورة، عديمة التفكير!»

وبدأ الخوف يتملك قلب ماريبل حتى وهي تعترض على هجوم خالتها:

«أنت شديدة القسوة عليّ، فكل ما فعلته أنني استعرت جواز صديقتي ولم أتسبب في أي ضرر لأحد».

«في البلاد التي تحتلها روسيا لا يجوز أن يستعير أحد جواز سفر غيره، ولا بد أنك تجهلين طريقة معيشتنا. فإذا ظننت أن هذه المغامرة ستقتصر على مجرد التأنيب، ونصحك بعدم تكرار الحادث مرة أخرى فأنت مخطئة. ففي هذه اللحظة بالذات لا بد وأن سيرجي إيفانوف يحقق مع الذين تعاقدوا معك للعمل. وإذا ظهر أي أثر للشك في ظروفك سيستجوبونك لفترة طويلة».

وضحكت ماريبل بعصبية، كانت الصورة التي أعطتها خالتها مبالغاً فيها، بحيث بدت لها وكأنها قصة تمثل على المسرح ولا تستحق أن تؤخذ مأخذ الجد. إلا أن ضحكها كان له وقع سيء على خالتها، فظهر على وجهها تعبير لم تستطع ماريبل تفسيره. وبعصبية دفعت الخالة ماريبل دفعاً خارج غرفة الملابس ومشيتا في الممر الذي تقع فيه الغرفة الخاصة بنجم الملهى والتي يتجمهر الناس حول بابها أملاً في رؤية نجمهم المحبوب.

ورأت ماريبل رجلاً قوياً يقف بالباب ليحرسه، وقد ضمّ ذراعيه على صدره العريض، وعبرت عيناه عن تبرمه بالمتفرجين المتجمهرين حول الباب. ولدهشة ماريبل لاحظت أن الحارس ابتسم مرحباً عندما وقع نظره على خالتها صوفي. وعندما أومأت برأسها نحو غرفة

روم بورو متسائلة عما إذا كان في الداخل، تقدم الحارس وأدخلها الغرفة بعدما تأكد أن أحداً من المعجبين لم يتسلل من تحت ذراعه.

كانت الغرفة خالية لكنهما سمعتا صوت أدراج تصفق وصوت صفارة بلا نغم تتخللها أصوات تنم عن التبرم والرغبة في السرعة في اللبس وكانت الخالة تحاول أن تكبت عصبيتها واهتمامها الشديدين عندما قال لماريبل:

«اعطني عشر دقائق معه بمفردي، وسأقدمك له فيما بعد... هناك شيئاً هاماً يجب أن نبحثه معاً».

ولم تنتظر جواباً من ماريبل بل طرقت بشدة الباب الذي انفتح فوراً وجاء صوت يقول:

«حبيبتي!»

ولما صدرت هذه الكلمة التلقائية من شفتي الرجل، انتابت ماريبل نوبة من الدهشة، إذ لم يظهر على خالتها أنها على مثل تلك العلاقة الحميمة مع الرجل كي يناديها باسم حبيبتي.

وبعد ثوان دخلت خالتها إلى الغرفة الداخلية. وبالرغم من محاولة ماريبل عدم استراق السمع، لم يفتها بأن لهجة الحديث الذي بدأ بفرحة كبيرة، أخذ الآن طابع النقاش الحاد. فأخذت ماريبل تروح وتجيء في الغرفة الخارجية محاولة ألا تستمع لصوت خالتها المستعطف. وفي الوقت نفسه كانت تتساءل عن تلك الخدمة التي كان الرجل يرفض تقديمها إليها. ولاحظت أن صوت خالتها أخذ في الارتفاع التدريجي وهي تصرّ على مساعدته إياها في مشكلتها، إلا أن نبرة صوته ظلت ثابتة. ومما زاد في انتباه ماريبل وجعل أذنيها تسترقان السمع، أنة مكتومة صدرت عن خالتها وصلت إلى مسمعها بوضوح

لا ريب فيه. لقد كانت خالتها تبكي! وكانت دهشة ماريبل عظيمة، بحيث تسمرت في مكانها لا تستطيع حراكاً. ولكن عندما سمعت تلك الآنة قررت أن تتصرف وتتدخل في الأمر. فسواء كان روم بورو مشهوراً أم لا، فلا بد أن يحاسب على تصرفاته.

وبلغ بها الغضب درجة لم تجعلها تتردد في فتح الباب دون استئذان في اللحظة التي رأته فيها يمسح دموع خالتها بمنديل كبير، ويقول لها وهو يرفع ذقنها بأصابعه، وينظر في عينيها الممتلئتين بالدموع:

«لا بأس يا حبيبتي، سأفعل ما تريدينه، لكن تذكري أنني أؤدي هذه الخدمة من أجلك فقط وليس لأنني أشعر بالعطف نحو تلك البلهاء التي تتوسلين من أجلها».

حينئذ تراجعت ماريبل بدون أن يلحظ وجودها ولم تفهم شيئاً من كلماته، إلا أن النظرة التي بدت في عيني خالتها أوضحت لها كل شيء. فقد شع الحب الشديد في عينيها وعلى شفتيها اللتين تتصفان في الظروف العادية بالجمود. أما الآن فقد كانتا ترتجفان انتظاراً لقبلاته.

ولم تشأ ماريبل أن تنتظر حتى ترى إذا كانت دعوة خالتها نالت استجابة الرجل الواقف معها.

وأثناء انسحابها بسرعة تعثرت بكرسي كبير أحدث صوتاً مدوياً بوقوعه على الأرض، فركضت عبر الغرفة محاولة الهرب لكن عندما وصلت إلى الباب نادتها خالتها قائلة:

«لا تذهبي يا ماريبل، أريد أن أقدمك إلى صديق عزيز وحميم جداً لي».

اضطرت ماريبل أن تصرف النظر عن فكرة الهروب واستدارت بضجر لتتعرف بالرجل الذي اتضح أن له مكانة كبيرة في حياة

خالتها.

«هذه، يا عزيزي روم، ماريبل مور ابنة أختي، وهي قادمة من انكلترا. فبعد أن حضرت حفلاً واحداً لك أصبحت إحدى المعجبات بك أليس كذلك يا ابنتي؟»

فبلعت ماريبل ريقها بصعوبة وردت على خالتها بعد أن فهمت منها نوع الاجابة التي تريد سماعها.

«بالطبع... لقد كان عرضك رائعاً جداً».

فانحنى لها وقال بلهجة انكليزية سليمة لكنها جافة إلى درجة التهكم:

«أشكرك يا آنسة مور... إنك حقاً كريمة».

وعندما جال بنظره في وجهها، شعرت وكأنها تلاشت من الوجود. فحتى لو كانت ذبابة أو بعوضة لتركت في نفسه أثراً أكبر، ولظهر بعض التعبير على ملامح الغجري الذي بدا عليه الملل.

وضحكت خالتها معلقة على كلامه:

«آنسة مور؟ كلا... لن أسمح لك بهذا النداء، فلا يجوز لقريبتي الوحيدة أن تعاملها بهذه الطريقة الرسمية المتكلفة. وأنا أصر على أن تناديها باسم ماريبل».

ثم وجهت الكلام لابنة أختها قائلة:

«وأنت كذلك... يجب أن تناديه باسم روم».

وتعجبت ماريبل من نظرة خالتها للأمور، فإن معارضة روم بورو كانت واضحة وشعرت هي بأنه يبذل مجهوداً كبيراً ليبدو مهتماً بها. وبالرغم من عدم شعورها بالغرور، هالها أن تصادف لأول مرة في حياتها اهمالاً تاماً بشخصها وجمالها الذي لا ينكره أحد.

غير أن رقة رده كانت دليلاً على نفوذ خالتها عليه إذ قال:

«إذا كان هذا يسعدك سأناديها باسم ماربيل بشرط ألا تعترض ابنة أختك على ذلك».

وبسبب النظرات التي تحولت إليها، اضطرت ماربيل إلى أن تستسلم لكلامه بهدوء، وقالت متعجبة من المرح السريع الذي أظهره.

«طبعاً لا اعتراض لدي».

وأظهرت الخالة رضاها عن ابنة أختها، خاصة وقد لاحظت وجنتيها اللتين صبغتهما حمرة الخجل، كما لاحظت ابتسامة روم الغامضة لذا أعطت الاثنين أهمية مبالغاً فيها، وتصورت تطورات سابقة لأوانها. فاقترحت عليهما قائلة:

«الآن وقد تم التعارف بينكما دعونا نذهب لمكان نتناول فيه الطعام ويعطيكما الفرصة لزيادة تعارفكما».

وفي الحال تمتمت ماربيل بكلمات الاعتذار رافضة اقتراح خالتها:

«آسفة يا خالتي، كنت أود أن أكون معكما لكن يجب أن أعود إلى الفندق».

ولم تكن ماربيل تبحث عن عذر للرفض، فقد تسببت في ذلك اليوم في غضب السيدة غلوري بما فيه الكفاية، كما ازداد اعتقادها بأن محاولة الفجري لمجاملتها والتأدب معها لا بد ستفتر إذا فرضتها خالتها عليه أكثر من ذلك. لكنه فاجأها بإصراره قائلاً:

«أعرف مطعماً مختلفاً تماماً عن غيره في المدينة وهو لا يبعد كثيراً عن هنا، لكن يجب أن نذهب بالسيارة وستجدان بعد الأكل أن جودة الطعام تبرر الذهاب إلى ذلك المطعم».

وفي الحال عبر الغرفة وأصدر تعليماته إلى حارس غرفته قائلاً:

«أحضر السيارة إلى المدخل الخلفي للمسرح يا روبه».

كما أصدر إليه بعض التعليمات الأخرى بلغة لم تفهمها ماربيل ثم عاد ونظر إلى صوفي قائلاً:

«لقد نفذت طلباتك، فهل أنت راضية الآن؟»

فأومأت برأسها وبدا عليها وكأنها ستنفجر بالبكاء ثانية في أية لحظة، لكنها تمالكت أعصابها وبادلته الابتسامة بأخرى.

أما ماربيل فارتجفت بدون سبب واضح، وشعرت بخوف لم تستطع تفسيره، لا شك بأن في الجو شيئاً من الخداع والتآمر، وما معنى هذه النظرات الصامتة المتبادلة بين خالتها وبين هذا الصديق الغامض؟ وتبرمت من نفسها لهذه الشكوك وحاولت أن تبدد مخاوفها. ولكن... ترى ما هو الدافع الخفي لدعوته لها على العشاء؟

كان الممر مظلماً مليئاً بالظلال، وكادت ماربيل أن تتعثر على الدرج وهي تتبع خالتها التي يمكن وصف حركاتها الحذرة بأنها كانت غامضة. وهمست مؤنبة ماربيل بغضب على ارتطام حذائها بالدرج الحجري:

«ألا يمكنك التزام الصمت؟ وهل يجب أن يعرف الحي كله أننا هنا؟»

وعقدت الدهشة لسان ماربيل ولم تعلق على كلام خالتها، فلم تر مبرراً لأن تتسلل بهدوء من السلم الخلفي لأحد النوادي الليلية. إلا أن طلب خالتها كان مطابقاً لتصرفها الغامض، وأصبح الجو متوتراً بحيث أنهم عندما وصلوا إلى الممر الضيق، وجدت ماربيل نفسها تقلد تلقائياً طريقة مشي خالتها في الأماكن التي يخيم عليها الظلام. وبدلاً من أن تستفسر من خالتها عن سر تحذيراتها الهامسة، وجدت

نفسها تطيعها بقلب يسرع في دقاته وهي تأمرها بأن تصحب روم بورو في سيارته بينما تقود هي سيارتها وتأخذ معها الحارس روبا.

ولاحظت ماريبل أن روم بورو يضم شفتيه بإصرار وهو ينتظر حتى وصلت سيارة صوفي إلى نهاية الممر لتنحرف نحو الطريق العام. ومع ذلك لم يبدأ في تشغيل محرك سيارته، ولكن عندما مرت سيارة أخرى قادمة من جهة مجهولة لتتبع سيارة خالتها مباشرة، بدأت ماريبل تشك في عدم بدء روم في تحريك السيارة. توتر صوفي وإصرارها على عدم إحداث أي صوت، وعلى الذهاب للمطعم منفصلين، كل هذا جعلها تشعر بفطرتها أن سيرجي إيفانوف أعطى تعليماته لتعقبهم. وفجأة اعتدلت ماريبل في جلستها عندما فهمت الموقف بحذافيره. ومن خلال صوت محرك سيارة روم بورو كانت تستعيد في ذهنها الكلمات التي سبق أن وجهها إلى خالتها والتي وصلت إلى آذانها عفواً لكن في هذه المرة كانت تفهم معناها:

«لا بأس يا حبيبتي، سأفعل ما تريدينه لكن تذكري أنني أسدي هذه الخدمة من أجلك فقط وليس لأنني أشعر بالعطف نحو تلك البلهاء التي تتوسلين من أجلها».

إذاً كانت هي السبب في استعطاف خالتها له ومطالبته بمعاونتها. يا لها من غبية لأنها لم تفهم هذه الحقيقة من قبل.

وكانت السيارة قد تركت ضواحي المدينة وأخذت تسرع في طريقها عبر الأراضي الشاسعة، بينما كانت هي تجمع شتات أفكارها الحائرة وأخيراً سألت روم:

«إلى أين تأخذني؟»

وكان روم منهمكاً في قيادة السيارة والانحراف بها في منحنى خطر فلم يرد عليها مباشرة.

«هل يهمك هذا؟»

وردت عليه بحدة ظهرت في نبرات صوتها:

«بالطبع يهمني، فأنا مرتبطة بالاشتراك في عرض غداً. وسواء رضيت خالتي أو لم ترض لا بد أن أكون في حفل افتتاح النادي الليلي. فلا تظن أنني لا أفهم خططكما. إن عدم وجود جواز سفري يسبب لها حرجاً مع صديقها، لذا قررت أن تبعدني عن طريقه حتى تهدأ هذه العاصفة. فهي ترى ضرورة الاحتفاظ بالتفاهم الموجود بينها وبين ذلك الشخص المسؤول، حتى ولو كان ذلك على حساب الولاء لأحد أفراد أسرتها».

وأخذت نفساً عميقاً من شدة التأثر وقالت:

«كيف يمكنها أن تفعل ذلك؟ وكيف تستطيع أية امرأة أن تتعاون مع رجل كهذا؟»

وفجأة أدار روم عجلة القيادة بعنف تسبب في ارتطام كتفها بجسم السيارة، ولكن غضبها تغلب على مشاعرها بحيث أنها لم تشعر بالألم. وبعد أن توقفت السيارة على حافة جزء مزروع من الطريق قال لها:

«أهذا ما تظنينه؟ لقد مضى عليك في هذه البلاد ساعات معدودة فقط ومع ذلك تتجرأين وتعارضين آراء الذين يعرفون من تجاربهم المريرة ماذا سيحدث. إن تصرفك هذا مثل تصرف الطفل العنيد يا آنسة مور. فبدلاً من تكليفي بمسؤولية تهريبك. يسعدني الآن أن يقع عليّ الاختيار للتخلص منك».

وتوقع الصمت بينهما كالسيف الحاد، بينما أخذت السيارة تنهب الأرض متابعة سيرها ومخترقة عدداً من القرى الصغيرة والمزارع التي تظهر عن بعد في الظلام بنوافذها التي يشع منها النور، وبدأت عينا ماريبل تطرفان بينما أخذ التعب ينال منها. وشعرت بتوتر شديد بسبب الأحداث المثيرة التي مرت بها أثناء النهار، إلا أن دفء السيارة وحركتها الرتيبة جعلاها تشعر بالرغبة في النوم بحيث لم تستطع مقاومته. وأفاقت فجأة عندما تركت السيارة الطريق العام ودخلت في طريق وعر جعلها تهتز بشدة وهي في طريقها إلى الغابة. ولم يبذل روم أي جهد لحمايتها محاولاً التخفيف من سرعة السيارة، بل استمر في طريقه فوق الأرض الوعرة وعلى وجهه تعبير بالارتياح والتشفي. أما ماريبل فحاولت أن تحتفظ بتوازنها وصممت على عدم الاعتراض. ولكن عندما داس فجأة على فرامل السيارة شعرت كأن كل عضلات جسمها قد قفزت من أماكنها. وأخيراً قال لها بلهجة آمرة: «ستمشي من هنا».

وتركها تتلمس خطاها بنفسها بين أشواك الزراعة الكثيفة التي أوقف السيارة فيها. وشعرت أنها لو اتهمته بتدبير الموقف الذي وجدت نفسها فيه لأشار بلا شك إلى ضرورة التضليل والتمويه. لذا سارت بمفردها وخرجت من بين الأغصان التي تغلغلت في كل قطعة من ملابسها وشعرها كما تعثرت ووقعت وهي تمشي وراء روم وقد اختفى عن نظرها بين الأغصان، وأخذت تسائل نفسها بمرارة عن سبب ملازمتها لرجل من هذا النوع في بلد عرف رجاله بالشهامة. ثم أسرعت في خطاها عندما سمعت نباحاً شرساً لعدد من الكلاب. وبعد دقائق قادها الطريق إلى مساحة صفت حولها في دائرة ما يقرب من خمس

عشرة عربة من عربات الغجر المغلقة، ورأت عدداً من نساء الغجر جلسن حول النار الموقدة وهن يشرفن على طهو الطعام في قدور تنبعث منها رائحة شهية. وكان المكان موقعاً مسرحياً جميلاً يلائم تماماً النساء الجالسات فيه. وكان شعر النساء طويلاً أسود لامعاً مصففاً في ضفائر طويلة. أما ملابسهن فكانت طويلة ذات طيات عديدة وصدور عارية، فتحاتها واسعة. وكانت ألوان ملابسهن زاهية متناقضة مع لون أجسامهن السمراء وعيونهن السوداء المعبرة. كما رأت عدداً من الرجال مضطجعين في ظل شجرة كبيرة وهم يتبادلون الأخبار انتظاراً لأن تقدم نساؤهم الطعام. وكانوا يلبسون ثياباً رثة قديمة من نفس طراز الملابس التي كان روم بورو يلبسها أثناء عزفه. وقد أثار ذلك المنظر خيال ماريبل حتى كادت تتصور أن صوت قارعي الدفوف والمغنين سيتصاعد من الدخان المنبعث من النيران.

وعندما حيا روم الموجودين التفت الجميع إليه، وفي لحظة كان محاطاً بالرجال الذين أبدوا فرحهم بلقائه وهم يحيونه ويربتون على ظهره، كما حيته النساء اللاتي بلغ بهن الحماس ذروته للقائه. ودار الحديث بينهم جميعاً بلغة تتخللها الكلمات البولندية لكنها أساساً لغة لم تفهمها ماريبل. وللمرة الثانية في ذلك اليوم شعرت بعدم اهتمام الناس بها، بينما أخذ الغجر ذوو المشاعر الملتهبة يتجمعون لتحية روم بورو بدون الاعتراف ولو بنظرة واحدة بوجود الفتاة النحيلة التي تصحبه والتي وقفت بينهم مثل الزهرة الصفراء الهادئة في حقل مليء بزهر الخشخاش الأحمر، واستراحت عندما شرح لهم باللغة البولندية قائلاً:

«لقد اصطحبت معي يا أصدقائي زميلة ستشاركنا رحلتنا. وستكون

في حياتي دائماً، لذا لا تساوركم الشكوك من جهتها، فأرجو أن ترحبوا بها وتتحملوا عدم درايتها بطباعنا وعاداتنا».

فالتفتت العيون الحذرة تتفقدها، ولم يظهر الموجودون شيئاً مما كان يدور في ذهنهم من ارتياب، ومع ذلك أشعروها بوجود عداء نحوها بعث في نفسها الخوف. ودفعت شابة جموع الملتفين حولها وتقدمت منها لتنظر إليها عن قرب بجرأة وقحة. وبدا عليها أنها تعرف جمال نفسها وهي تقف أمام ماريبل بخصرها المتمايل وعينيها البراقتين تلتهم كل تفاصيل مظهرها. وفجأة زمت شفتيها وقالت:

«لا نريد امرأة غريبة هنا».

وترددت همهمة بين الغجر تعبر عن موافقتهم على قولها، كفاهم تضليل البوليس وغيره من المسؤولين الصغار الذين يتدخلون في حياتهم. وقال روم ببرود:

«قلت إنني سأكون مسؤولاً عنها تماماً. ألم تعد كلمتي تكفيكم؟»

واستطرد يقول وقد زادت نبرته وهو ينظر إلى الرجال الغاضبين:

«يبدو أن هذه القبيلة أصبحت تحت حكم النساء في غيابي، بحيث تأتي أوامري في المرتبة الثانية بعد أوامر الفتاة لالا!»

ولم يتحمل الرجال كلامه المهين فدفعوا لالا بعيداً حتى ترنحت بين جموع الواقفين الذين قالوا كرجل واحد:

«ما زلت زعيمنا يا روم بورو وتستطيع الفتاة أن تبقى بيننا».

وتفرقت النساء وبقي الرجال لمناقشة شؤونهم الخاصة. وقبل أن ينضم إليهم روم بورو أخذ ماريبل جانباً وأمرها قائلاً:

«من الآن فصاعداً عليك أن تطيعي أية تعليمات أوجهها لك. وبمجرد شرح ظروفك لمجلس القبيلة سيوافق بلا شك على بقائك بشرط أن

أكون أنا المسؤول عن كل تصرفاتك، فإن سلامتك أنت وأفراد القبيلة سوف تتوقف على طاعتك العمياء. فهل تفهمين ما أقوله؟»

إلا أنها مالت برأسها وهي تقول معترضة على كلامه:

«لكنك تتناسى أنني لا أريد البقاء هنا. القرار لم يكن فكرتي، لذلك فإن كل هذه العملية المثيرة لا داعي لها. فلو لم تتدخل أنت وخالتي في شؤوني لأمكن حل المشكلة بشرح بسيط للظروف. فأنا لم أخطىء، أن كل ما فعلته هو أنني خالفت القانون بعض الشيء. لكن حتى الروس لا يستطيعون تحويل خدعة بسيطة إلى جريمة شنعاء

وحاول روم جاهداً أن يحتفظ بهدوء نبرته إلا أن الغضب كان بادياً بوضوح في كلماته وهو يقول من بين أسنانه المطبقة:

«لولا خالتك لسلمتك إلى سيرجي إيفانوف شخصياً حتى أشتفي فيك وأنت تندمين على كلماتك هذه».

وكانت كلماته تدل على صعوبة فكرة تقبل القبيلة لها، بحيث وهنت ثقتها وتزعزعت، ويبدو أن شيئاً من ترددها ظهر عليها لأنه توقع منها رداً إيجابياً على سؤاله:

«هل أنت مستعدة للتعاون معنا؟»

فقالت وهي تعترف بهزيمتها:

«لا بأس، سأفعل ما تطلبه مني ولو مؤقتاً».

واستراحت ماريبل عندما لم يحاول أن يستغل انتصاره عليها. لكن قلبها أخذ يدق بقلق عندما أشار لاحدى الغجريات التي تقدمت منه بتثاقل. إلا أن ماريبل لم تلمس فيها روح العداء التي أبدتها الفتاة لالا عندما قدمها روم لبعضها قائلاً:

« ماريبل، هذه هي كوري زوجة صديقي الحميم روبا وسوف

تسافر معهم كجزء من أسرتهم».

ثم تابع الحديث قائلاً:

«بما أن ماريبل تتكلم البولندية بدرجة لا بأس بها، سيكون في استطاعتكما التفاهم معاً».

وجالت كوري بنظرتها البراقة فوق وجه ماريبل، وعندما لم تجد تردداً أو تراخياً ظهرت على وجهها ابتسامة بطيئة. فاستراح روم وانصرف وهو راض لينضم إلى أعضاء مجلس القبيلة الذين كانوا في انتظاره.

وقالت كوري بخجل وهي تتوقع رفضاً محرجاً من ماريبل:

«هل أنت جائعة؟»

فتنهدت ماريبل بارتياح لسؤالها وقالت:

«أشعر بجوع شديد وكأني لم آكل من مدة طويلة، كما أن رائحة طعامكم رائعة ».

وبدا الحرج على وجه كوري وهي تقول:

«يجب ألا نأكل قبل الرجال، لكني سأحجز لك كمية من الطعام تشبع جوعك».

ثم ابتسمت وقالت تداعب ماريبل:

«تعالي... سأعطيك شيئاً قليلاً من القدر، فإذا اشتدت حدة المناقشة سينسى الرجال حاجتهم إلى الطعام، لذا يجب ألا نتركك تعانين من الجوع أطول من ذلك».

وضحكتا كالأطفال وهما تلتقطان من القدر قطعاً صغيرة من اللحم لأشباع الجوع الذي كان يؤلم معدة ماريبل. وفي نفس الوقت تجاهلت كوري نظرات الغضب المصوبة إليها من بقية النساء وهن

منهمكات في طهيهن. وجلست الصديقتان تتبادلان الحديث وتتعارفان. واستجابت كوري لرغبة ماريبل في معرفة كل شيء عن حياة الغجر الذين يعيشون في حركة مستمرة كالغصون المتمايلة والمياه المتدفقة. فسألت زميلتها قائلة:

«هل لديك أطفال يا كوري؟»

وعكست عينا كوري عاطفة الأمومة وهي تشير بيدها ناحية شيء يبدو كغطاء كبير موضوع على الأرض بين عربات الغجر وقالت بفخر:

«لديّ طفلان، ابن اسمه بونزي وابنة اسمها موزول وهو في لغتكم اسم فاكهة».

وعندما نظرت إليها ماريبل بدهشة ضحكت كوري وتابعت كلامها قائلة:

«أننا نسافر كقبيلة واحدة ولكل أسرة منا عربتها الخاصة، وتقوم كل زوجة بالطهو والغسيل والتنظيف لأسرتها. فبالرغم من سفرنا المشترك إلا أن كلا منا يحترم حرية الآخر ورغبته في العزلة. لكن إذا احتاجت أية أسرة إلى مساعدة ما تقدمها لها. أما الأطفال فلا يتبعون هذه القاعدة فهم ليسوا في حاجة إلى العزلة، فهم يختلطون طوال النهار وطوال الليل أيضاً».

ثم أشارت إلى الغطاء الكبير الذي لاحظت ماريبل حركة تحته وكأن بركاناً صغيراً يثور بداخله. وتابعت كوري كلامها قائلة:

«ينام كل الأطفال معاً كما ترين تحت غطاء واحد. ويبدو أن أحدهم قلق الليلة وسوف تحدث ضجة وضحك ومرح من الآخرين حتى يهدأ وينام الجميع».

وسألتها ماريبيل وهي تتعجب من طريقة حياتهم:

«ألا تتعبين من نفس الصحبة طوال الوقت، وتتمنين رؤية وجه جديد والاستماع لآراء جديدة من آن لآخر؟»

«نحن نختلط مع الآخرين، ولسنا دائماً في قبيلة واحدة. فقريباً قد يقرر زوجي أو غيره من الرجال ترك هذه القبيلة والانضمام إلى غيرها. فمثلاً قد نجد عند مفترق الطرق إعلانا نعرف منه أن قبيلة شقيق أو قريب موجودة في المنطقة فنترك هذه القبيلة ونبحث عن الآخرين. وهكذا يستمر ارتباطنا بأسرنا ونعرف منها جميع الأخبار. من مات ومن ولد ومن سيتزوج».

استولى الحديث على انتباه ماريبيل حتى أنها اعتبرت عودة الرجال شيئاً غير هام. وعندما ظهر روم بورو و روبا زوج كوري من ظلام الليل، ودخلا إلى حلقة النور طلبا الطعام بدا التبرم على وجهها وسأل روم ماريبيل قائلاً وهو يسرع في التهام الطعام الذي قدمته له كوري:

«ألا تريدين معرفة القرار الذين اتخذه المجلس بخصوصك؟»

فردت عليه ماريبيل بوقاحة قائلة:

«بما أن آرائي لا قيمة لها، فلا فائدة من السؤال».

فوافق على أقوالها بغضب وقال:

«معك حق، ومع ذلك أجد لزاماً عليّ أن أوضح لك بأن المجلس اتخذ قرارات في صالحك. فإكراماً لي، قرروا السماح ببقائك. وإكراماً لخالتك ستكونين ضيفة مكرمة طيلة بقائك هنا، لكن بشرط ألا يحرج وجودك أحداً. فالغجر يعتبرون تصرفات الأغراب غريبة فيجب أن تعذريهم إذا أبدوا مخاوفهم من قدرتك على معايشة نسائهم بنجاح».

وكانت ماريبيل على وشك الاحتجاج على وضعها تحت الاختبار عندما انسل شخص إلى الجزء المظلم في وسط المعسكر ليفضي برسالة هامة في أذن روم. وفجأة رأته يثور مثل الحيوان المطارد ويصمت ثم ينتفض واقفاً ويختطفها بين ذراعيه ويرفعها عن الأرض قائلاً لها وهي تحاول الافلات من قبضته.

«لا تتحركي ولا تنطقي بكلمة واحدة».

وبينما هو يحملها إلى المنطقة المظلمة من المعسكر سمعت أصواتاً آتية من جنود المعسكر تجادل بجلبة واضحة. إلا أن هذه الأصوات خمدت فجأة عندما أنزلها روم إلى الأرض ودفع بها تحت الغطاء الضخم الذي يرقد تحته الأطفال النائمون. وأخيراً اتضحت لها خطورة الموقف حين سمعت صوت سيرجي إيفانوف يدوي في أرجاء المعسكر.

«تعلمون جميعاً عقاب الذي يؤوي مجرماً. فإذا وجد جنودي تلك الفتاة الانكليزية في معسكركم فلا داعي لأن أخبركم بما سوف يحدث لكم. فالفتاة جاسوسة ويجب القبض عليها».

وأصدر أوامره المشددة إلى رجاله بتفتيش عربات الغجر. فارتجفت ماريبيل تحت الغطاء عندما سمعت تكسير الأخشاب وتحطيم الأواني مما يدل على عنف الجنود أثناء قيامهم بعملية التفتيش. ولفت نظر أحد الجنود الروس أنين أحد الأطفال في نومه فسأل بحدة:

«ما هذا؟»

فردت عليه كوري قائلة:

«إنه طفل قلق يئن في نومه فأرجو ألا تزعجه».

وسمعت ماريبيل صوت الأخشاب تتحطم تحت حذائه الكبير

وهو يقترب من الأطفال النائمين. وتصببت عرقاً من الخوف وهي تنتظر محبوسة الأنفاس بينما وقف الروسي قريباً من رأسها يفكر هل يرفع الغطاء عن الأطفال أم لا. وكاد يغمى عليها من رد الفعل عندما قرر ألا يرفعه وابتعد عنه. وبعد نصف ساعة تم خلالها تفتيش جميع العربات ونزع كل شيء عنها، أمر سيرجي إيفانوف رجاله أن يتوقفوا عن التفتيش ويتركوا المعسكر.

٣ـ عداء الحب

كانت عربة الغجر متينة البناء تقف على عجلات عالية، وفي كل جانب منها ثلاث نوافذ تغطيها ستائر باهتة كانت في يوم من الأيام زاهية اللون. وفي مقدمة العربة باب مزدوج أمامه عتبة عريضة مثل الشرفة. اما جدران العربة فمن الخشب الزان الطبيعي المصقول، وسقفها أبيض اللون. وظهر لحاف زاهي اللون فوق أريكة منجدة تستخدم كسرير، وفي العربة كرسيان بدون ظهر وعدد من المساند المحشوة بالريش. هذا هو كل الأثاث الموجود في العربة التي تستخدمها ماريبل كمنزل لها.

استلقت ماريبل على السرير، وأطبقت بيديها على اللحاف بدون وعي وهي لا تزال تحت تأثير اللحظات المخيفة التي مرت بها. ورأت على الحائط العاري ظل روم ، وقد طال بسبب ضوء المصباح المدلى من سقف العربة. وشعرت، بوجوده في كل شبر من العربة يهيمن عليها من مكانه ويوجه إليها سؤاله:

«أما زلت تعتقدين أن جهدنا لابعادك عن طريق سيرجي إيفانوف عملية مسرحية لا ضرورة لها؟»

فنظرت إليه وهي تمقت تعاليه عليها ووقاحته في عدم الاهتمام بمشاعرها. فجاءت كلماتها مريرة عندما ردت عليه معترفة بالواقع وقالت:

«لقد أخطأت، وأعرف الآن أن املي الوحيد في الحرية هو في يديك. وايدي عشيرتك، لذا سأبذل كل ما في وسعي حتى أكون محبوبة

لديهم.»

«كم أنت عاقلة!»

قالها روم وقد شعر بخيبة أمل من عدم ردها بعصبية كعادتها معه حتى الآن.

ومما زاد في شكه من موقفها الجديد هو اعتياده على مقابلة الناس له بحرارة سواء كانوا من افراد جمهوره أو أفراد قبيلته، لذا وجد في موقفها الجديد شيئاً غريباً. وقالت ساربيل في نفسها: إذا كان هذا هو شعوره فإنه سيصاب بمزيد من خيبة الأمل لأنها تعتزم في المستقبل أن توقف روم الجبار عند حده.

كانت سلامتها تتوقف على هذا الرجل الذي ينتعش من تبرمها الغريزي، ولكن بما أنها تفضل عدم المجازفة في البقاء مع القبيلة، قررت أن تكون على وئام مع ذلك الغجري المتعجرف.

لذلك راقبته وهو يصب الشراب الأحمر كالياقوت في الكؤوس الرشيقة وتغلبت على اشمئزازها، وقررت أن هذه الفرصة مواتية خطتها الجديدة، لذا قبلت منه الشراب بنظرة كلها دلال صوبتها نحوه من بين أهدابها الثقيلة، ورشفت قليلاً ثم همست:

«أشكرك، إنه لذيذ. هل هو من انتاج مزارع كرومك في اسبانيا؟»

وعندما رفع حاجبيه من الدهشة لسؤالها هذا، شعرت أنها ارتكبت خطأ جسيماً لكنه قال:

«ولماذا مزارعي أنا بإسبانيا على وجه التحديد؟»

وأثار تساؤله احمرار وجنتيها وأجابته بتردد:

«لا أدري، فإنني أقرن الغجر دائماً بالأندلس وموسيقى الفلامنكو والرقص والشمس.»

«إنك تفكرين في غجر أسبانيا الذين يعتبرون نصف رحل، وغالباً ما يكونون مستقرين في مكان واحد مثل الغجر الموجودين لديكم في انكلترا أو في ألمانيا أو رومانيا. أما هم فرحل أصليون يقتصر ترحالهم على حدود بلد واحد أو حتى دولة واحدة، إذ توجد قبائل في روسيا و أمريكا كما تجدينهم في أي مكان في العالم، من أوسلو حتى اسطنبول ومن اللابو حتى أفريقيا الجنوبية و البرازيل. فهل هذه الحقائق تدهشك؟»

فقطبت جبينها وقالت معلقة على كلامه، وقد بدا التساؤل في عينيها الرماديتين الواسعتين:

«تقول هم كما لو لم تكن واحداً منهم.»

وتملكت روم الدهشة لتعليقها. وبعد تردد بسيط سحب كرسياً وجلس عليه في مقابلتها وقد وقع ضوء المصباح على شعره الأسود الفاحم وجعل فمه الصارم يبدو أكثر سماحة. وعندما بدأ في الكلام جاء حديثه بطيئاً في بادىء الأمر، ثم زادت سرعته وكأنه يجد الراحة في التخفيف من العبء الذي يحمله في قلبه من ذكريات دفنها منذ زمن طويل، فقال وقد أذهلها كشفه لها عن اسراره:

«بدأت حياتي مع الغجر في ليلة مقمرة من ليالي شهر مايو سنة ١٩٤٠ وكنت في الثالثة من عمري. لكنني أذكر بوضوح أنني استيقظت في سريري تلك الليلة على صوت قادم من السماء، وتلاه صوت ظننته لأول وهلة رعداً. ومع ذلك لم أشعر بالخوف، فقد كان والدي نائمين في الغرفة المجاورة. لذا بقيت في سريري أنصت باهتمام للصوت، حتى أخذ في الارتفاع. فجريت إلى النافذة وقد تملكني الخوف الممزوج بالدهشة والانبهار فرأيت مجموعات من الطائرات الحربية تحمل علامة

النازي أي الصليب المعقوف وهي تحوم حول أسقف المنازل. ومن آن لآخر كانت إحداها تخفض جناحيها وتسقط من السماء كالنسر الجريح ثم تنفجر حين ترتطم بالأرض محدثة خراباً كبيراً. ومن شدة خوفي أردت أن اجري إلى غرفة والدي ولكنني وجدت نفسي متسمراً في مكاني. وفجأة شعرت كأن المنزل بأكمله قد انفجر وانهار ببطء حولي في كوم من التراب والحجارة والأخشاب المحطمة.»

وحبست ماريبل شهقة تنم عن ألمها. وبالرغم من سماعها القصة كما رواها لها صاحبها بلا مبالغة، إلا أنها رسمت في مخيلتها صورة واضحة لما حدث، وهمست قائلة:

«ووالداك؟»

فرد عليها قائلاً:

«لقد قتلا... والشيء الوحيد الذي أذكره بعد ذلك هو تخبطي بين جموع الناس وهم يسرعون في سيرهم هاربين من الدمار. وكان الطريق مزدحماً بعربات النقل والأوتوبيسات وأعداد هائلة من الدراجات بعضها عليه ركاب، وبعضها يحمل بالبطاطين والمراتب والحقائب المحطمة وكلها تسير على الأرصفة هرباً من الطريق المزدحم بالمرور. ولم يلحظ وجودي أحد. وبعد عجزي عن السير من شدة التعب، تسللت إلى أحد الحقول ورقدت لأنام قليلاً.»

وبدت في عينيه ومضة تعبر عن ذكرى أسعدته وبددت النظرة التائهة من عينيه، لكنه استمر في حديثه فقال متابعاً قصته:

«صحوت لأتناول إفطاراً من الحساء الساخن المقدم إليّ من وعاء كبير كان يغلي على نار موقدة بالقرب من قدمي. وشجعتني الوجوه السمراء الباسمة على شرب الحساء ونسيان شعوري بالضياع وبالفزع، انهم

الغجر الذين تقبلوني بحنانهم العظيم كواحد منهم.»

ظلت ماريبل صامتة عندما انتهت كلماته وأخذت تفكر في هول ما سمعته، وشعرت بضآلتها باعتبارها الشخص الذي يفضي إليه ذلك الرجل المتعجرف بسر حياته. ثم أوحى لها عقلها ألا تفرح بهذه الثقة فهي بالنسبة له لا وجود لها، بل هي مبعث مضايقة له كما لو كانت ذبابة على ذراعه. أما غير ذلك فهي لا شيء. وكان في إمكانه توجيه كلامه إلى أشباح بدلاً منها، إلا أنه بوعي أو بغير وعي قد كشف عن وحدته. لقد كان قائد الغجر وليس رئيسهم، لأن ذلك الجنس الحر يخضع لسلطة شخص واحد، ولكنهم يشعرون فيما بينهم وفي قرارة أنفسهم بأن دماءه ليست من دمائهم، وهذه الحقيقة لم يبوحوا بها ابداً بل يفضلون تجاهلها. فبالرغم من الاحتفال به واحترامه لم يكن من بين أصدقائه الكثيرين والمعجبين به من يعتبره من أهله.

ثم وقف وتمطى بتكاسل كما لو كان ينفي نظريتها بأنه وحيد. ثم مشى إلى الباب وكأنه ضيّع وقتاً كثيراً في حديث عابر:

«أرجو أن يكون سريرك مريحاً، وإذا احتجت إلى أي شيء سأكون قريباً منك.»

ودفعها الفضول إلى الاقتراب من النافذة بعد ان تركها وخرج. فكان المعسكر ساكناً والاجسام الهادئة ممددة تحت الأغطية الثقيلة داخل الحلقة المحيطة بالنار الخامدة. وسمعت نعيق بومة ارتجف لها جسمها متوقعة منها شراً. لكنها اطمأنت عندما رأت روم الطويل ممدداً على الأرض عند نهاية السلم المؤدي إلى عربتها. وعندما أخذت تخلع ملابسها دارت أسئلة حائرة عديدة في ذهنها تبحث عن ردود لها، وتأكدت وهي تدخل تحت لحافها الدافيء أنها لن تستطيع النوم. إلا أن

جفنيها أطبقا قبل ان تفكر في أحداث ذلك اليوم المثير..

واستيقظت على صوت ضحك وصراخ جموع الأطفال وهم يجرون بين العربات، وتحت أرجل الخيل، وعلى حدود المعسكر، يمرحون ويرتعون في استمتاع ظاهر وصحة جيدة. ولم تجد أثراً لروم أو غيره من الرجال عندما خرجت من عربتها لتبحث عن ماء تغتسل به وما زال النوم يداعب عينيها! إلا أنها رأت كوري التي كانت في طريقها لمغادرة المعسكر وقد علقت دلوين في ذراعيها. وعندما نادت عليها ماريبل، انتظرت مبتسمة حتى لحقت بها وقالت لها:

«إنني ذاهبة لاحضار ماء لغسل الملابس، ويحسن بك أن تأتي معي لأن هناك عادات يجب ان أشرحها لك لاتباعها إذا كنت ستبقين مع قبيلتنا.»

فردت عليها ماريبل قائلة:

«أولا انا بحاجة إلى الاغتسال، وبعد ذلك سأستمع بسرور لتعليماتك.»

إلا أن كوري هزت رأسها وقالت :

«بل استمعي اليها قبل الاغتسال، وإلا خالفت تعليمات القبيلة ووقعت تحت طائل عقاب مجلسها.»

ووصلتا إلى النهر قبل ان تسأل ماريبل المزيد من الأسئلة. وبلغت دهشتها منتهاها عندما بدأت كوري في تقسيم النهر إلى اقسام مختلفة بخطوط وهمية.وبكل جدية شرحت لها كوري عاداتهم قائلة:

«تؤخذ مياه الشرب والطهي من أقصى شمال النهر، وتليها مياه غسيل الأواني والاستحمام، وبعدها جنوباً تأتي المياه اللازمة لشرب الخيول وغسيل الملابس. ويجب استعمال دلو مختلف لكل غرض من هذه

الأغراض، وإلا أصبحت المياه نجسة، ويحرّم على الغجر لمس أي شيء نجس.»

وفي الحال غيرّت ماريبل فكرتها عن الغجر وشعرت بأنهم يتمسكون بشدة بالعادات والتقاليد، وأحست بالخنوع وهي تشرع في تنفيذ تعليمات كوري.

وأعجبها المشي حافية القدمين في المياه الضحلة لملء الدلو الذي أعطتها إياه كوري. وكان للمياه بريق كالشمس، وانسابت برودتها حول أصابع قدميها وهي تحاول أن تحافظ على توازنها فوق الحجارة المغطاة بالطحالب الخضراء، في محاولة لملء دلوها من مكان بعيد.

وضحكت كوري من حركاتها وقالت لها:

«خذي حذرك يا ماريبل.»

ولم تتم كلماتها حتى انزلقت قدما ماريبل ووقعت في البركة العميقة ووصل الماء حتى رقبتها، وسمعت صوت ضحكات تأتي من ناحية الشاطئ، بينما أخذت كوري تعاونها على الخروج وقد التصق شعرها الأشقر برأسها وجعلها تبدو كالصبي الخائف.

وشعرت كأن حلتها المبتلة تزن طناً وهي تلتف حول جسدها المرتعد من البرد. وحاولت كوري أن تغالب الضحك،اما لالا الواقفة ترقب الموقف، فكانت ضحكاتها تحمل معنى التشفي السافر وهي تقف على الشاطئ، دون أن تحاول تقديم أية مساعدة لماريبل، وأخذت ترقب كوري أثناء محاولتها جذب ماريبل من المياه. وقالت لالا وهي تضحك متشفية وتمر بيديها على جسدها الذي يتفجر أنوثة:

«إن فتاة روم الأجنبية تبدو كالصبيان أكثر من ذي قبل. كم أود لو

كان روم هنا ليرى بنفسه ما أظهرته المياه. إن ملابس الرجال تخفي تحتها جسم صبي لم يكتمل نموه بعد.»

وكادت المياه أن تتحول إلى بخار من شدة غضب ماربيل لهذا الهجوم الوقح. فطبقاً للمقاييس الغربية يعتبر قوامها مثالياً. أما بالنسبة لقوام لالا المكتنز، فتعتبر نحيلة، وآلمها هذا، لذلك جاء ردها عنيفاً في شكل مثل تعلمته من والدتها:

«إن الجمال لا يمكن أن يؤكل بملعقة .»

ولشدة دهشتها اصطبغ وجه لالا بالاحمرار واستدارت بنظرة حانقة وانصرفت، وسمعت كوري بجوارها وهي تشهق من الدهشة، ثم تنفجر في نوبة من الضحك وتقول:

«كيف عرفت ذلك؟ إن عيب لالا الأكبر هو جهلها بطهو أبسط الوجبات، وقد أصابتها كلماتك في صميم كبريائها فلا غرابة ألا يتقدم لها أحد من رجال القبيلة ليتزوجها. لقد كسبت حقاً هذه الجولة لكني أخشى أن تزيد كلماتك من طبع لالا الحقود وهو الانتقام لأقل إساءة توجه إليها.»

ثم نصحتها قائلة:

«احذريها يا عزيزتي. فقد جعلت منها عدواً.»

ولما كانت خطط صوفي لم تشمل نقل أمتعة ابنة أختها معها، لذا اضطرت ماربيل إلى قبول الملابس الجافة التي عرضتها عليها كوري لأن كل ما تملكه من ملابس كان مبتلاً على جسمها البارد. فدخلت عربة كوري وخلعت ملابسها ودلكت جسمها بمنشفة خشنة حتى عادت الدماء تجري في عروقها، ثم لبست التنورة المتعددة الطيات والبلوزة ذات الفتحة الواسعة التي أخرجتها لها كوري من

صندوق ملابسها. وشعرت ماربيل بملابسها الجديدة كأنها بطلة رواية موسيقية كوميدية، خاصة عندما ربطت مشبك الحزام العريض الذي جعل خصرها قطر دائرة اليد. واستدارت إليها كوري وهي ما تزال تنبش في أعماق صندوقها وقالت لها:

«هذه الملابس تلائمك تماماً. ولن يجد روم صعوبة في تفريقك عن صبي، كما لا بد أن لالا ستعترف بهذا الآن.»

وضحكت كوري عندما احمرت وجنتا ماربيل من الخجل ثم عبرت عن رضاها عندما وقعت يداها على الشيء الذي كانت تبحث عنه في الصندوق، فقالت لماربيل وقد أخرجت يدها من صندوقها بقبضة من المصاغ المصنوع من العملات الذهبية وقالت لها:

«بهذه ستتم زينتك.»

فاحتجت ماربيل قائلة:

«لا أستطيع أن آخذها. تبدو ثمينة وأخشى أن أفقدها.»

فتعجبت كوري وقالت بتردد، وقد أحزنها رفض ماربيل:

«إنني أقدمها لك هدية لا ترد، فمن عاداتنا تقديم أحسن ما لدينا لمن نعجب بهم.»

وقفز قلب ماربيل لضخامة خطئها، بدا على كوري الاستياء مما اعتقدت أنه رفض لصداقتها. ورأت ماربيل أن تهدئ من مشاعر كوري الجريحة بأن تقبل الهدية المقدمة لها بنفس الروح التي قدمتها بها صديقتها. ولما شعرت بالألم الذي سببته لكوري، خرّت على ركبتيها بجانب الفتاة واعتذرت لها قائلة:

«آسفة يا كوري...أرجو أن تسامحيني، فلم أكن أفهم تقاليدكم.»

وفي الحال غيّرت الابتسامة من مظهر كوري وقالت وهي تدفع

بالمصاغ إلى أيدي ماريبل:

«إذاً هل تلبسينها؟»

«أشكرك... سألبسها بكل سرور بشرط أن تضمني لي أن روبا لن يغضب لأنك أعطيتني إياها.»

لكن كوري طمأنتها قائلة:

«بل سيكون فخوراً بذلك، فنحن نتقاسم الثروات التي تأتي لنا بفضل كرم قائدنا روم. من سنوات قليلة كانت قبيلتنا من أفقر قبائل الغجر، عانينا من الفقر والمتاعب الكثيرة، ولم يكن لنا بارقة أمل في طريقة لنغير بها حظنا العثر، لكن روم صمم على أن يبحث لنا عن مصدر للمال، ليس لنفسه بل لنا نحن عشيرته.»

ثم أتمت كلامها قائلة بفخر واعتزاز:

«والآن لدينا بطون مليئة، وأطفال أصحاء، وعربات وماشية ممتازة. إن روم رجل غني جداً، أو مليونير.»

فاستغربت ماريبل لهذا النبأ. وبالرغم من أن كوري لم تذكر نوعية ثروة روم، إلا أن إشارتها إلى الثراء الكبير أدهش ماريبل كثيراً فسألت صديقتها قائلة:

«إذا كان روم قد انفق كل نقوده عليكم فكيف يكون غنياً؟»

فبدت على كوري الدهشة وهي ترد قائلة:

«إن المليونير وحده هو الذي يستطيع أن ينفق مليوناً.»

قالت ذلك بمنطق بسيط حتى أن ماريبل لم تحر جواباً، ثم استطردت تقول وهي تثبت الأساور والعقود حول معصم ماريبل ورقبتها:

« روبا يحصل على قسط أكبر من ثروة روم لأنه يصحبه إلى كل

مكان يذهب إليه، ويتقاسم معه متاعب العالم الغربي. فبعد أن يفي بجميع احتياجاتنا، يحول المبالغ المتبقية إلى قطع ذهبية للضمان ضد الحاجة والعوز.»

لم تندهش ماريبل من حب عشيرة روم له واعترافهم له بالجميل. فإن اليتيم الخائف الذي التقطه الغجر من بين جموع اللاجئين الهاربين، قد جازاهم على صنيعهم الانساني نحوه خير جزاء.

وبمرور ساعات النهار اعتادت ماريبل ملابسها المستعارة من صديقتها، ونسيت تدريجياً أنها لم تكن في بادىء الأمر مريحة. وقضت معظم وقتها في مساعدة كوري في أعمالها، كما حاولت أن توطد علاقتها ببقية النساء. ففي بادىء الأمر كن حذرات في تعاملهن معها والاستجابة لمحاولتها التقرب منهن، إلا أن رغبتها الأكيدة في إقامة صداقات معهن، بالاضافة إلى محاولاتهاالمتعثرة المضحكة في التخاطب معهن بلغتهن سرعان ما أذابت التحفظ الموجود بينهن.

وعندما عاد الرجال الى المعسكر في آخر النهار بعد يوم قضوه في المقايضة في سوق للخيل، لم يكن مستغرباً ألا يلتفت أحد لماريبل في بادىء الأمر وهي بين جموع النساء المنهمكات في الطهو والمرهقات بسبب مشاغبة الاطفال المحيطين بهن. فعندما تقدم روم إلى الجزء المضيء من المعسكر، لم يلحظ ماريبل بالرغم من كونها قريبة جداً منه. اقترب من النار ووقف يرقبها وهي تحرك محتويات آنية حديدية بمغرفة كبيرة، وبدون أن تلحظ وجوده مرت بأصبعها على حافة المغرفة لتلعق شيئاً من الصلصة العالقة بها. وكانت النيران المهتزة تضيف مزيداً من الرقة إلى ملامحها الدقيقة. وتضفي على شعرها بريقاً مثل الفضة. أما الظلال فقد ضمت قوامها وأخفت تفاصيله بدلال يثير

الرجال. وكانت تضع الملح على الطعام عندما قال لها مازحاً:

«إذا كنت تتنكرين في زي شخصية مجهولة، فهل أخمن من هي؟»

ووقعت المغرفة من يدها في الاناء، كما شلت المفاجأة حركتها، وأثار وجوده الضاحك خجلاً بدد رقتها وسلب كل الرشاقة من حركاتها. وأخيراً زاد من حرجها وخجلها بعبارته القاسية وهو يقول:

«لقد حرمت المرأة الغربية نفسها من أنوثتها بسبب كفاحها في سبيل التحرر، لذا يجب التمسك بارتداء البنطلون.»

واندلعت شرارة وانعكس ضوؤها في أعماق العينين الرماديتين الباردتين فقالت:

«هل تتكلم عن ثقة، أم هذا مجرد استنتاج؟»

فضحك واقترب منها وقال :

«لديّ عينان ولدي بعض التجارب، فإن مغازلة المرأة الغجرية مثير مثل اصطياد النمور. أما أنت فصيدك هين مثل صيد الغزال الصغير.»

فقالت بحدة واعتداد:

«إنني أعرف كل شيء عن العلاقة بين الجنسين.»

«ربما...لكن ما زلت في حاجة إلى تعلم كل شيء عن الحب. فالعلاقة بين الجنسين كلمة عملية باردة لا محل لها عندما تستخدم لوصف عملية صهر قلبين وجسدين وفكرين معاً. لذا يجب التخلي عن كل فكرة للتحرر إذا أردت الاندماج في الوحدة الكاملة التي تعتبرها نساؤنا حقاً لهن. فإن الرونق الخارجي الذي يرضي الرجل لا يهمنا نحن رجال الغجر. فلا حاجة بنا لشمعة بدون لهب.»

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة، وتحت جنح الليل والمطر، تحركت

قافلات عربات الغجر من مكانها، وسارت في سكون وقد غطيت حوافر الخيل بالقش، وربطت بقطع من القماش الملون، وسارت وهي تتجنب الطرق العامة مخترقة البلاد عبر الطرق الوعرة التي لا تستطيع السير عليها غير العربات ذات العجل الكبير. وشعرت ماريبل بوخز الضمير لأنها كانت مستريحة في عربتها الوثيرة وهي تتمتع بالدفء، بينما جلس روم في الجزء الخارجي منها تحت المطر المنهمر وهو يحث الخيول على التقدم للأمام، وأحياناً كانت القافلة تبطئ في سيرها فيضطر روم للقفز من مكانه إلى الأرض وقد غطى الطين قدميه حتى كاحليه ليدفع العجلات المتعثرة بكتفه. وأحياناً تندفع العربة إلى الأمام وتطيح بماريبل لتترنح بين الأواني والحلل التي تحدث بها كدمات لم تشعر بها في بادئ الأمر. وكان شباب القبيلة منهمكين في مساعدة المتعثرين في الوحل المكثيف.

وبعد ساعات من السفر الشاق سمعت ماريبل صوتاً متكرراً لصفارة منبعثة من العربة الأولى للقافلة. وكان صوت الصفارة مطمئناً وهي تسمعه مختلطاً بصوت وقع حوافر الخيول على الوحل، وصوت بكاء الأطفال، أحياناً، من العربات القريبة. وبعد ذلك مباشرة أدهش ماريبل صوت وهي تسرع في سيرها على أرض صلبة مرة أخرى . وكانت حوافر الخيول قد فقدت القش المربوط بها من مدة طويلة.

وفتح باب العربة ودخل روم كما دخلت معه لفحة من الهواء البارد. وظهرت ابتسامته العريضة وهو سعيد لانتصاره على الطبيعة القاسية. ولمعت عيناه من بين خصلات شعره الأسود المتدلي على جبينه، وقال بارتياح ظاهر:

«عبرنا الحدود ودخلنا تشيكوسلوفاكيا. فمع أننا مازلنا في أرض روسية، إلا ان أميالاً كثيرة تفصلنا عن سيرجي إيفانوف. وغداً، إذا لازمنا الحظ، سنبتعد عنه أكثر.»

وزادت ابتسامته إشراقاً وهو يقول:

«بعد قليل يا عزيزتي سنفترق إلى الأبد.»

يا عزيزتي...لقد سبق لماربيل أن سمعت هذه العبارة الحانية باللغة البولندية من والدتها. لذا لم يكن مستغرباً أن تلقى تلك العبارة صدى في قلبها. وبدت لها العربة صغيرة عندما أخذ روم يتقدم منها. لكنها أخذت تتراجع وتبتعد عنه، وقد طغى ظله الكبير على الحائط على ظلها الدقيق. إلا أنها شعرت بالحرج لخجلها منه، فالتفتت إليه بتحد. ومع ذلك لم تستطع إخفاء الرجفة التي ظهرت في صوتها:

«أنا أيضاً تواقة للعودة الى وطني، فسعادتك لا تفوق سعادتي بذلك.»

ومما زاد من وطأة السكون الذي ساد بينهما، صوت دقات ساعة كبيرة معلقة في العربة. ولبرهة قصيرة تلاقت نظرته الواعية السوداء بنظرتها الغامضة الرمادية. وسألها روم فجأة وكأنه يدرك لأول مرة أنها ذات شخصية مستقلة.

«هل لديك أقارب في انكلترا؟»

وشعرت بغصة في حلقها وحاولت أن تفهم سر اهتمامه بها فردت:

«القريبة الوحيدة هي صوفي، لكن لي أصدقاء.»

«أصدقاء...؟ هل ترين أن الصداقة رابطة كافية لاشباع احتياجاتك الشخصية؟ أو ربما لك بين هؤلاء الأصدقاء شخص خاص تودين أن توطدين علاقتك به.»

ولفت نظره اصطباغ وجنتيها بحمرة الخجل. ومما زاد من حرجها

التغيير الذي ظهر على وجهه والذي دل على انه استنتج شيئاً معيناً من خجلها. وتضايقت وردت عليه قائلة:

«كلا، لا يوجد شخص معين. لكني أرجو الحصول على وظيفة جيدة، وهي طبعاً أمنية تعتبرها لائقة بإحدى بنات جنسي.»

واستاءت ماربيل عندما لم يظهر أي تعبير على وجهه لعبارتها.

«لا يهمني ما تفعلينه بحياتك. فبمجرد وصولنا إلى النمسا سيكون من السهل تدبير أمر انتقالك الى انكلترا. وبعد ذلك أشك إذا كنا سنلتقي ثانية.»

ثم مشى نحو الباب وقال:

«حاولي أن تنامي قليلاً فسنسافر طيلة الليل. الطرقات ممهدة وستسرع العربة في سيرها.»

وكما تكلم بسرعة خرج بسرعة بدون أن يتيح لها فرصة الرد عليه بطريقة تحفظ بها ماء وجهها.

ونامت حتى تخلل الحر جدران العربة، ثم دفعها الفضول وحاجتها إلى الهواء النقي للخروج والانضمام إلى روم الذي ترك التعب أثره على عينيه. وعندما رآها مرر بيده على وجهه، حيث لم يتسع الوقت لحلاقة ذقنه، وعبرت نظرته عن اعتذاره لمظهره، بينما صعدت ماربيل على المقعد الخشبي للعربة وجلست بجواره. وكانت القافلة تسير ببطء صاعدة التل، وكان المطر قد غسل الأرض ونظفها، ولمعت أشعة الشمس على كل ورقة في الأشجار، وكانت جداول المياه تنساب إلى أسفل التل بحيوية براقة، ولم تعرف ماربيل سبباً لشعورها بالحيوية والسعادة وهي تجلس على المقعد المرتفع وتترنح من حركة العربة وتشم عبير الهواء المشبع بشذى الزهور، وتستمتع بصحبة روم،

بصورة لم يسبق ان شعرت بها من قبل.

أما روم نفسه فبدت عليه السعادة وهو يدخن غليونه، ويدعها تشاركه صحبته بدون أن يوجه إليها نقداً أو تهكماً كعادته. وفجأة مدت ماريبل ذراعيها وكأنها تحتضن الطبيعة الجميلة بأكملها وقالت:

«يا لها من طريقة حياة ممتعة. كيف تطيق أن تترك كل هذا الجمال لتدخل النوادي الليلية المغلقة وتعيش في المدن المكتظة بالناس؟»

فعض على مبسم غليونه بأسنانه وقال:

«تعلمت من الغجر ان أعيش في الحاضر وليس في المستقبل. فكل الذكريات والأماني والرغبات والدوافع الخاصة بالغد، كلها متأصلة في الحاضر. فبدون الآن لا يوجد ما قبل، كما لا يوجد ما بعده.

وتأملت ماريبل في معنى كلماته وفلسفتها، واستعادتها لنفسها وحمدت الله على إتاحة الفرصة لها لكي تشاركه لحظة الحاضر التي كانت تعيش فيها، حتى ولو لم يكن لها مستقبل.

وفجأة سمعت صوت صفارة مرحة، انتصبت لها آذان الخيول وفردت ظهور السائقين المقوسة من التعب، وكأن موجة منشطة سرت في القافلة بأسرها، وقف سائق العربة الأولى أمام مقعده وأصدر صيحة الفرح وهو يدفع بجواده فوق قمة التل. وحذا حذوه بقية الرجال. وترددت في الجو أناشيد الطيور المختلطة بأصوات العجلات وحوافر الخيول. ورغم خوفها شعرت ماريبل بالسعادة وتشبثت بالعربة وهي تتقدم بسرعة وتميل بشدة وكأنها ستنقلب. وكانت الأبخرة تتصاعد من أجساد الخيول المتصببة بالعرق. إلا أن صوت صليل السلاسل والأواني كان يزيد من الشعور بالسرعة. هكذا تقدمت القافلة فوق

قمة التل ثم هبطت واتجهت نحو دائرة من عربات الغجر المعسكرة من قبل في ذلك المكان. وجرت النساء والأطفال إلى الأمام، وهم يتعرفون على الشخصيات المألوفة لديهم، ويتبادلون معهم التحيات قبل ان تستقر القافلة الجديدة في مكانها. وبينما كانت المجموعتان تندمجان، تبينت ماريبل تشابهاً واضحاً بين أفراد الأسر، فحيا القريب قريبه، والأخ أخاه بروح مرحة سعيدة. وبسرعة وضعت آنية الطهو على النار التي أعيد إضرامها بينما تولى الشباب أمر الخيول. وتبادل الرجال الأخبار وأخذت النساء بإعداد طعام الافطار للضيوف.

وتسللت ماريبل داخل العربة ولم يلتفت إليها أحد، إذ لم يكن لها مكان أو مجال في هذا التلاقي بين القبيلتين شعرت بالخجل من مقابلة الأغراب ولم ترغب أن تفرض نفسها عليهم. فجلست وحيدة أمام النافذة وأخذت تسلي نفسها بالتخمين عن القرابة الموجودة بين الأفراد.

وسرعان ما فترت تسليتها وانتابتها كآبة طاغية. تذكرت خالتها وكيف افترقت عنها فجأة وفي ظروف غير ودية. فشعرت لأول مرة بمرارة الوحدة التي تنتاب اليتامى الذين لا قريب لهم. فتمددت على سريرها وأغمضت عينيها، كما تعمدت شغل تفكيرها بعيداً عن الأفكار التي تدور حول الأسرة والأصدقاء. إلا أن الحزن تمكن منها، ولم تستطع مسح آثار دموعها من فوق خديها في الوقت المناسب عندما سمعت صوتاً داخل العربة. نظر اليها روم وهي تتظاهر بالتثاؤب ثم تتمطى وكأنها استيقظت لتوها من النوم. ورغم أن فمه لم ينم عن اية مشاعر إلا أنه عندما وضع يده على كتفها وأشار إليها أن تتبعه. تبعته بدون اي تعليق أو سؤال.

في تلك الليلة أقامت القبيلة المقيمة حفل سمر للقبيلة الزائرة فجلس الرجال حول النار على الطريقة الغجرية يتسامرون بحرية وانطلاق واستمتاع ودارت النساء حولهم يقدمن من الطعام لاشباع الشهية التي شحنها الاستمتاع بجمال الصحبة، وحلاوة الحديث. وبعد أن أوى الأطفال إلى فراشهم انضمت النساء لمجلس الرجال حول النار لسماع الأغاني التي تحكي تاريخ الغجر ينشدها تروكا وهو رجل مسن، محترم من رجال القبيلة كلها، وكما لو كان ذلك حقها، وجدت ماريبل أنهم أجلسوها بجوار روم الذي راح يترجم لها الكلمات المنشدة. وقد قرّب فمه منها وأخذ يهمس بالكلمات في أذنها. وأعجبت ماريبل بشاعرية كلمات الأغاني، وكلما سمعت المزيد منها زادت نشوتها بما تحمله من مشاعر عاطفية جياشة. وعندما انتهى الغناء كان المجهود قد أضنى الرجل المسن فجلس متكئاً على سواعد أولاده وقد خارت قواه، وساد صمت رهيب بين الجالسين كما لو كان الوقت توقف عن سيره تحت تأثير سحر الأغاني وجمالها.

ثم بدأ روم يدندن بنغم راقص من أنغام الغجر، الأمر الذي بدد التوتر والوجوم واستولى إيقاع النغم على الشباب فاشتركوا تلقائياً في ترديده. أما الفتيات فقد أخذن يصفقن على الايقاع ووثبت إحداهن من وسط الدائرة متأثرة بالنغم وأخذت ترقص وتدور في مرح ونشوة، واتسعت عينا ماريبل عندما ادركت أنها لالا وتضاربت في نفسها مشاعر الكراهية والاعجاب معاً عندما بدأت الفتاة تلف وتدور أمام المتفرجين. وكان تعبير وجهها ينم عن الكبرياء وقد بدا التهكم في عينيها وهي تدق الأرض بقدميها الصغيرتين العصبيتين. وشجعها تصفيق الأيدي على الاسراع في حركة قدميها وهي تلف حول الدائرة

وقد انفردت طيات ملابسها بينما كانت نظراتها تجول بين اوجه الحاضرين بحثاً عن شخص معين. ولدهشة الجميع توقفت فجأة أمام روم وبدأت تقوم بحركات متماوجة بطيئة متحدية إياه أن يرفض الدعوة الصريحة التي كانت تقدمها بكل وضوح.

وشعرت ماريبل وهي بجواره بتوتره وبالغضب المتصاعد من قرارة نفسه. وبعد فترة من التردد قفز إلى الحلبة لينضم إلى لالا في الرقص، وعندما أحاط بيده خصرها هلل الحاضرون وصفروا معبرين عن رضاهم، ثم انضم إليهما اثنان من الراقصين وتلاهما أخران حتى أصبح كل ما تراه ماريبل من روم هو وجهه الضاحك كلما ظهر لها من بين الراقصين. وكان الرقص بالنسبة لهم جميعاً تحدياً شخصياً يتبارون فيه فيما بينهم. وقد تقدم شباب الغجر ودخلوا الحلبة وأخذوا يدقون على ركبهم ويصكون بكعوب أحذيتهم معاً في تتابع رتيب على الأرض وهم يدورون بزميلاتهم بحماس شديد بعث الصيحات المرحة من أفواه الفتيات.

وكانت ماريبل سابحة في تأملاتها حتى أنها فوجئت بصوت هادئ، يقول لها:

«أتقبل الفتاة الأجنبية مشاركتي الرقص؟»

ورفعت رأسها ورأت شاباً جاداً لم يخف صوته اللطيف حيويته التي حاول إخفاءها، لكنها ظهرت في عينيه الجريئتين.

وفلتت منها الألفاظ قبل أن تتيح لنفسها وقتاً للتفكير:

«لا أستطيع...»

وتابعت نظرته نظراتها التي كانت توجهها نحو روم، وسألها الشاب بتهكم وجرأة:

«لا تستطيعين؟ أو لا تجرؤين؟»

وأسعفها الغضب، الذي كانت تحاول كبته، وأخذ النار التي أراد أثارتها بها. وشعرت بدون سبب تعرفه بالاهانة أمام جميع أهل المعسكر عندما هجر روم مجلسها إكراما للالا والرقص معها، وقد أثبت تلميح الشاب الغجري صحة شكوكها لذلك استدارت بحرارة لم يتوقعها في بنات جنسها واستجابت لدعوتـه، مما بعث بالابتسامة المشرقة إلى وجهه.

«نعم، سأرقص معك.»

«اسمي كاليا.»

«شكرا يا كاليا...هيّا بنا.»

وأعجبها طريقة رقص الغجر حيث يمسك الراقص بالراقصة بشدة حتى لا تستطيع التنفس، ويقرب وجهه من وجهها حتى تضطر إلى تقويس ظهرها إلى الخلف محاولة الأفلات من قبضته. ومما زاد في حجة ضمها إليه الازدحام الشديد من حولها. وقد طال الرقص بلا انقطاع. وبعد حوالي نصف ساعة من الحرج تمنت لو أمكنها أن تضحي بأي شيء لتتخلص من قبضة مراقصته وعواطفه الجياشة. وسنحت لها تلك الفرصة عندما اصطدم كاليا براقصين أخرين. فأرتطمت أقدام الراقصين المسرعين بكاحل ماريبل التي صرخت من الألم وانهارت في تراخ. وارتمت إليه وهي تقاوم موجات من الألم الشديد.

وشتم كاليا الراقصين اللذين ارتطما بها بكلمات لاذعة، وعندما التفت إلى ماريبل للعناية بإصابتها هجم الراقص، الذي تسبب في الحادث على كاليا، مما اضطره إلى ترك ماريبل قبل أن يترنح من أثر اللطمة التي أطاحت به مرتطماً ببقية الراقصين. وسرعان ما أثار

الغضب الذي أشعله كثرة الشراب هياج الجميع وانقسم الرجال على بعضهم، وتحيز كل منهم لأحد المتشاجرين مما دعا النساء إلى الصراخ والجري طلباً للاحتماء في مكان أمين، وأطاح الرجال بعضهم بعضاً في معركة استخدمت فيها الأواني والصحون وكل ما توصل إليه المتشاجرون. كما استخدمت فيها الأيدي والأرجل والرؤوس كالأغنام المتناطحة، فكان منظراً مقززاً لماريبل. تحاملت على نفسها وبجهد جهيد وصلت إلى إحدى العربات وقد أغمضت عينيها حتى لا ترى مجون الوحشية!.

وسمعت صوت صفارة يعلو فوق صوت المعركة، إلا أن أحداً لم يلتفت إليها. وتلتها صفارة أخرى طويلة تخللت الجلبة الشاملة التي عمّت الجموع المحتشدة، ونجحت في تهدئة المشاعر الملتهبة والحد من اللكمات المتبادلة. وعندما سمعت صوت روم من بين الأصوات التي سمعتها عن بعد، فتحت عينيها ورأت قامته الطويلة تسيطر على جموع الرجال، وخرجت من فمه كالسيف كلمات التأنيب والتعنيف لتهورهم وتصرفهم الطائش معبراً عن احتقاره لهم بكلمات بعثت حمرة الخجل إلى وجوههم وجعلتهم يستديرون ليتجهوا نحو عرباتهم. وعندئذ رفعت نبرات صوت لالا الواضح رؤوسهم المحنية. كانت كلماتها عنيفة وعيناها ممتلئتين بالكراهية. مدت لالا أصبع الاتهام نحو ماريبل وصرخت:

«إنها هي تلك المرأة الأجنبية التي أثارت المتاعب. إننا لم نحبذ وجودها بيننا من بادىء الأمر، لكنك أنت يا روم الذي صممت على بقائها، لذلك يجب أن تتقاسم معها اللوم وتنال نصيبك منه.»

ثم استدارت نحو الجموع الغاضبة وقالت وهي تتعمد اثارة

غضبهم:

«يجب إبعاد تأثير هذه المرأة السيء عن قبيلتنا. فإذا لم يطردها روم بورو ورؤساء القبيلة الذين وافقوا على وجودها، يجب أن تتقدم لمجلس القبيلة ليدلي برأي العدالة. هل توافقون كلكم على ذلك؟»

ووصل صوت هدير الموافقة إلى أذني ماريبل وهي ترتعد وقد استندت إلى جانب العربة. ترامى إليها الصوت مخيفاً مثل صوت حشد تجمع حول المقصلة متعطشاً للانتقام...

٤ ـ مفاجأة المحاكمة...

شرح روم لماريبل بتبرم وألفاظ رتيبة، التشكيل القانوني لمجلس القبيلة القضائي الذي يرأسه عدد من القضاة اكتسبت حكمتهم على مر السنين مركزاً أسطورياً. وقد ساعدت قراراتهم عبر أجيال لا تحصى على كبح جماح المجموعات الأقوى من الغجر التي تفرض إرادتها على المجموعات الأضعف. ولولا احترام الغجر لمجلسهم القضائي لهبطوا إلى مستوى مجتمع يسوده الفساد. وأدركت ماريبل من كلامه مدى استيائه من الموقف الذي وضعته فيه الفتاة لا لا بندائها الذي أثارت به المشاعر. كان شيئاً مهيناً لكرامته وكبريائه أن يقف هكذا متهماً.

وكانت ماريبل تروح وتجيء في عربتها وهي تشعر بنظراته تتابعها بغضب واستياء. ولما لم تعد تحتمل الصمت بينهما قالت له مستعطفة:

«أنا لم أخطىء أبداً... فكيف لي أن أعرف أنّ مراقصة كاليا ستكون لها هذه الأصداء؟ وفي أي حال كرهت كل دقيقة من الرقص معه ولو أنك لم تتركني وحدي كما فعلت، لما حدث شيء من هذا».

وكان روم يستند إلى الباب بدون اهتمام بها. لكن اتهامها إياه بإهمالها أشعل مشاعره وجعله يتصرف بعنف، فبخفة حركته المعهودة تقدم نحوها واقترب منها فاضطرت أن تشيح بوجهها بعيداً عنه وانتظرت هبوب العاصفة، واثقة أنها أمدته بالعذر الذي كان يبحث عنه ليمطرها بكلماته اللاذعة. إلا أنه لم ينطق بكلمة. بدلاً من ثورته

بذ الجو المتوتر بينهما بابتعاده عنها ليصب لنفسه شيئاً من الشراب.
جلس على السرير واستند على منكبه ليشرب بتلذذ واضح. وبعد أن
انتهى من الشراب أذهلها باعترافه قائلاً:

«أنت على حق، وضعتك تحت حمايتي ونسيت واجبي نحوك ونحو
رفاقي، لذا أستحق العقاب. لكن الله وحده يعلم كم سيكلفني
تصحيح وضعي في عيون عشيرتي واسترداد مكانتي بينهم».

ثم عبر عن غضبه وضيقه بإلقاء الكأس من يده على الأرض
فتحولت إلى قطع صغيرة تبعثرت في جميع أرجاء العربة. فانهارت
ماريبل وارتمت على السرير، وقد خانتها شجاعتها. بينا صفق
روم الباب وراءه خارجاً من العربة تاركاً إياها ترتعد وكلماته
الغامضة تجول في ذهنها. ترى ما هو العقاب الذي ينتظره من هذه
القبيلة الهمجية؟ وجالت بخاطرها أهوال كثيرة لكنها استبعدتها
باعتبارها أوهاماً لا أكثر. ولكنها لم تستطع أن تمحو ذكرى ثورته
عليها. وأوحت لها غريزتها أن هناك كارثة قد تسببت في القلق الذي
أبداه روم بورو، وهو الشخص الذي يطلق عليه الغجر القساة اسم
الرجل العظيم.

ولعدة أيام، وبينا القافلة تسير، ظل الحادث يراود ذهن ماريبل رغم
محاولة روم تناسيه. كان القلق يلازمها طيلة الوقت ويمنعها من
استيعاب شبكة اتصالات الغجر. ففي كل نقطة من الطريق توجد
إشارات عديدة تركها الغجر الذين مرّوا قبلهم. كما كانت هناك قطع
من القماش الملوّن معلقة على غصون الأشجار لترشد القوافل التي
تأتي بعدها.

وبدلاً من أن تخرج القافلة عن الطريق كما توقعت ماريبل، تقدم

الركب ببطء وثبات وانضمت إليه عربات أخرى عند مفترق الطرق
حتى امتد طابور العربات إلى مسافة عدة أميال. ولدهشتها اكتشفت
أن الاتصال التليفوني الحضاري، إجراء يقره الغجر، أما الأغراب من
الأصدقاء فاستخدمهم الغجر كنقاط للاتصال. وكانت الرسائل الهاتفية
والبريدية من شتى البلاد ترسل إليهم ويقومون هم بتوصيلها إلى
الغجر. وعلمت ماريبل أن لروم اتصالاته الشخصية، شأنه في
ذلك شأن أعضاء القبائل الأخرى. ومقابل هذه الخدمات كانت نقاط
الاتصال هذه تمنح ولاءً خاصاً لا يتمتع به إلا القليلون.

وشعرت ماريبل أن المجلس القضائي يزداد أهمية كلّما اقتربت
القافلة الزاحفة من مكان تجمعها مع غيرها. وكان الجميع يلتزمون
الصمت في حضورها وحضور روم، ثم يهمهمون هامسين فيما بينهم
بأصوات خافتة عندما يكونان بعيدين عن سمعهم. ولم يعلق روم
على تغيير معاملتهم، كما لم يبد اهتماماً بذلك. ولكن عندما انطوت
الأميال تحت عجلات القافلة، ظهرت المرارة على ملامح وجهه وجاءت
الكلمات التي كان يوجهها إليها مقتضبة حتى أنها تمنت، وعيناها
تدمعان، أن تصل سريعاً إلى نهاية رحلتها. فكلّما اقتربت من النهاية
زادت راحتها. وعندما لمحت في الأفق تجمعاً كبيراً من القوافل، لم تشعر
بأي خوف، بل شعرت براحة جارفة تطمئنها بأن محنتها ستنتهي قريباً،
إما بالخير أو بالشر.

وكان مقر المعسكر الجديد واسعاً ومحطاً لقوافل عديدة مبعثرة على
مساحة شاسعة، ورأت شباناً يدفعون بعربات الأمتعة وهي تهتز يميناً
ويساراً محملة بالمؤن التي تكفي لمدة طويلة. وحتى الأطفال كانوا
منهمكين في جمع الحطب اللازم لإيقاد النار، ودخلت كوري العربة في

اللحظة التي استدارت فيها ماريبل مبتعدة عن القافلة. وقد تمكنت من التدقيق في الظلال الغامضة التي تتحرك في ضوء النار البعيد. فبعد وصول القافلة«بقليل كان روم قد اختفى مؤكداً عليها قبل انصرافه بقوله:

«ابقي داخل العربة حتى عودتي، فاختفاؤك عن نظر القبيلة أفضل لك حتى تنتهي المحاكمة».

وكان المفروض أن تغضب من معاملتها كسجينة، إلا أنّ تفكيرها كان مشوشاً حتى أن أوامره المشددة لم تثر فيها شيئاً غير الاذعان وذلك بإمالة من رأسها. وجاءت إليها كوري تحمل بطيخة كبيرة وقالت لها:

«أتيت لك بهدية».

وكانت تحاول أن تبدو عادية منشرحة الصدر، إلا أن القلق تغلب عليها وبدا في عينيها. ومع ذلك أخذت تقطع البطيخة بسكين حادة، وتقسم قلبها الأحمر الذي تتخلله البذور السوداء اللامعة إلى قطع صغيرة. وعندما قدمت لها كوري قطعة لتغريها على أكلها قالت لها:

«لا أشعر بالجوع».

وفعلاً رفضت قطعة البطيخ التي قدمتها كوري التي نسيت أمر الفاكهة وناشدت ماريبل قائلة:

«لا تحزني هكذا يا ماريبل، فليست القبيلة كلها ضدك، فهناك كثيرون مثلي ومثل روبا يعلمون بفكرهم الصائب أن الحقد هو الدافع لاتهامات لالا. فقد سبق أن نبهتك إلى أن لالا هي عدوك اللدود».

وظهر الألم على ماريبل وهي تجيب هامسة:

«بالنسبة إليّ، لا أهتم بأمر القبيلة، لكني لا أريد لروم أن يتألم، فإذا قرر المجلس القضائي أن يسلمني إلى سيرجي إيفانوف فإنني لن أعترض على قراره أو أشكو منه طالما سيقع العقاب عليّ أنا وحدي. لكن ماذا سيفعلون بروم يا كوري؟»

قالت ذلك وعيناها تعبران عن كل معاني الخوف. وعندما اخذت في البكاء طوقتها كوري بذراعيها محاولة تهدئتها وقالت لها:

«إن رجال المجلس قضاة عادلون، فلا تخافي من حكمهم كما أن روم معروف ومحترم بين عشائر الغجر بحيث لن تؤثر فيه اتهامات لالا وأمثالها، بل ستتنزل عليه برداً وسلاماً. ولسوء الحظ أن روم قد أعلن أنه ولي أمرك، وحسب تقاليدنا يعتبر هو المسؤول عن تصرفاتك، ولا بد سيقدر المجلس العبء الذي أخذه على عاتقه».

وكان لكلمات كوري التي قالتها بثقة وإيمان وقع حسن في نفس ماريبل التي توقفت عن البكاء، وقالت لكوري:

«أرجو أن تكوني على حق في تأكيداتك. فحتى لو جاء حكم المحكمة هيناً فهل سيصفح روم عني؟»

وطافت ابتسامة على فم كوري عندما قامت لتنصرف وقالت:

«إذا كان شعوره مثل شعورك فلن يكون عفوه مشكلة على الاطلاق».

فرددت ماريبل كلامها بدهشة قائلة:

«... شعوره مثل شعوري؟»

مشت كوري نحو الباب وقالت تداعبها:

«طبعاً... لابد أنك تحبين ذلك الذي يسبب لك الغضب، كما يسبب لك البكاء».

واجتمع مجلس القبيلة القضائي بعد ظهر اليوم التالي. مبتعداً عن

جموع الغجر الذين عبروا أميالاً كثيرة لحل مشاكلهم. وزادت رهبة الموقف عندما اتخذ القضاة أماكنهم في نصف دائرة وعقدوا جلستهم بوقار لكن بلا خيلاء. وانتظرت ماريبل وروم حتى يأتي دور قضيتهم في جدول أعمال المجلس. وكانت هناك عدة شكاوى مقدمة للنظر فيها قبل قضيتها، وقد أجل المجلس بعضها بينما بت في الأخرى بطريقة أرضت أصحابها. وبعد ساعة كاملة من عذاب لا يحتمل، سمعت اسمها ينادى عليه. ومن لهفتها بدأت تتقدم بسرعة نحو أعضاء المجلس إلا أن روم أمسكها من ذراعها مشيراً بحركة من رأسه إلى أن لالا ماثلة أمام القضاة، وقد أخذت تعرض قضيتها بطلاقة فائقة وهي ترمي أعضاء المجلس بسهام لحظها الفتاك معبرة عن تهور روم ومعارضتها له في فرض فتاة أجنبية ذات تأثير سيء على أفراد القبيلة. أخذ قلب ماريبل يدق بشدة عندما شعرت أن توسلات لالا قد لاقت عطفاً من مستمعيها.

ولم تجرؤ ماريبل على النظر إلى روم. فمنذ سمعت تعليق كوري، أصبحت أية كلمة عادية أو أية حركة تصدر منها تعطيها شعوراً بالخجل، يحّول كل اتصال بينهما إلى سكون مطبق. ترى ماذا كانت كوري تعني بكلامها؟ هذا هو مادار في خلدها وهي تسمع صوت لالا. لقد أغضبها روم مراراً في مناسبات عدة. أما أن يكون السبب في دموعها فهذا مالم تصدقه أبداً.

وقطع عليها روم افكارها قائلاً:

«إنهم ينتظرون، وانت تختارين أحرج الأوقات للاسترسال في أحلام اليقظة التي تنتابك أحياناً».

ودهشت لكلماته واصطبغت وجنتاها باللون الأحمر، وعندما سارت

خلفه وهي تتعثر في خطاها عبر المسافة المغطاة بالأعشاب بدا لها أعضاء المحكمة وكأنهم شرسون مثل حد السيف.

وواجه روم القضاة بكبرياء وشمم وهو يبدي استياءه من الاجراءات التي يتخذها المجلس. وعندما أخذ أعضاؤه الصامتون ينظرون إلى ماريبل بنظرات فاحصة، اقتربت من روم طلباً للحماية من العداء الذي شعرت به من جميع المحيطين بها ووجه أكبر أعضاء المحكمة سناً كلامه إلى روم قائلاً:

«لقد سمعنا من مجلس قبيلتكم السبب الذي دعى لقبول الفتاة معكم ونحن موافقون على قرارهم».

فتنفست ماريبل الصعداء، إلا أنها دهشت عندما استأنف كلامه قائلاً:

«إننا جميعاً ندين للرفيقة صوفي بالولاء، ولا يمكن إغفال أي طلب تتقدم به، ولكن علينا في الوقت نفسه مراعاة صالح القبيلة. لذلك يجب، قبل أن تصدر حكمنا يا روم أن نتأكد من أنه لن يسمح إطلاقاً للفتاة التي تحت رعايتك بأن تفلت من رقابتك ثانية».

وسعل روم قبل أن يجيب إلا أن ماريبل أوقفته. فبعينين رماديتين كلها جدية. نظرت إلى هيئة المحكمة وقالت لهم مؤكدة موقفها:

«أعدكم ألا أفعل شيئاً بعد الآن وأن أطيع أي أمر يصدر إليّ بشرط أن...»

غير أن روم نهرها بعنف وأسكتها. أخرس كلماتها على لسانها. وبدهشة حملقت في وجهه الغاضب وأخذت تشك في نفسها خشية أن تكون قد اقترفت ذنباً جديداً. وسمعت همهمة من الغجر أكدت مخاوفها

حتى قبل أن يقول لها روم من بين أسنانه المطبقة من الغيظ:
«لا يوجه الكلام المباشر للمحكمة إلا عن طريق الرجال، وإذا أرادت امرأة الكلام يجب أن يكون ذلك عن طريق وسيطه».

فهالها ضخامة جريمتها وقالت بخوف:

«إنني آسفة... فقد فكرت...»

فقاطعها روم قائلاً:

«لا تفكري ولا تتكلمي ولا حتى تتحركي».

وشعرت ماريبل بالمهانة وهي تقف ساكنة لتستمع إليه وهو يعتذر نيابة عنها. وبجهد جهيد، وبعينين مسبلتين بدت ذليلة بحيث هدأت من روع القضاة. ووجه روم كلامه للمحكمة.

«إنني أطلب سماحكم بالنسبة لتصرف الفتاة التي تحت وصايتي، فهي إلى جانب جهلها بعاداتنا، عنيدة وتعتد بما تعتبره تصرفاً متحرراً».

فذهلت المحكمة لفكرة تطلع المرأة إلى الحرية، واغتاظت ماريبل عندما تبدت دهشتهم وبانت على شفاههم ابتسامات التعجب والاستهزاء. وشعرت أن نظرات الاستهجان لن تحيدها عن الدفاع عن موقفها... وكادت فعلاً أن تتكلم لو لم يلحظ روم وجهها المتجهم ويقرر أن يتدخل في الأمر. مد يده وضغط بها على ذراعها مسبباً لها آلاماً مبرحة جعلت الدموع تطفر إلى عينيها، لكنه أرغمها على الطاعة بتصرفه هذا، ولم يترك ذراعها إلا بعد أن هزت رأسها علامة على الاستسلام.

وبدون انتباه إلى تضارب إرادة كل من ماريبل و روم، أخذ المحلفون في التشاور وهم ينظرون حولهم من آن لآخر كما لو كانوا يستلهمون الاطمئنان إلى قرارهم. وكان روم يرقب ماريبل

بابتسامة على فمه وهما في انتظار حكم المحكمة. ولاحظت ماريبل أن روم كان يشعر في تلك اللحظة بارتياح لم يشعر به طيلة اليوم. واستشفت من ذلك أن الأمور تسير سيراً حسناً. وحمدت الله إنه لن يضطر إلى تقديم أية تضحية بسبب تصرفها كما كان يتوقع. وبعد كثير من المداولة وتبادل الآراء الحاسمة رفع أكبر القضاة سناً رأسه. وشعرت ماريبل بتوتر أعصاب روم والرجل ينظر إليه ملياً. ولسبب لم تفهمه، احست بأن الرجل الكهل كان متعاطفاً مع روم عندما قال موجهاً كلامه إليه:

«يوجد تصرفٌ واحد يبدد شكوك أفراد قبيلتك في قدرتك السيطرة على هذه المرأة. فهل تقبل الموافقة على هذا التصرف؟»

ولم يحرك روم ساكناً، إلا أن اضطراب تنفسه كان دليلاً على خوفه. ولفترة وجيزة جال بعينيه في وجه ماريبل الذي علته الدهشة وخرج الرد متعثراً من بين شفتيه:

«نعم أوافق».

وساد الهرج بين جموع الناس مثلما يعصف الريح بأشجار الغابة، ولكن أحداً لم ينطق حرفاً.

«الفتاة... هل توافق على ذلك؟»

واتجهت الأنظار نحو ماريبل وهي تحاول أن تفهم معنى السؤال الغامض. ترى ما هو الشيء الذي يطلبون موافقتها عليه؟ واقترب الناس منها وهم يتوقون إلى سماع ردها. واتضح لها أن هناك قراراً يجب أن تتخذه. وقد فرض عليها فرضاً. ولم تعرف الشيء الذي تتعهد بأن تلتزم به، لكنها شعرت بواجبها نحو روم. فإذا كانت هي السبب في المأزق الذي وضعته فيه. وإذا كانت تريد أن تساعده فليس أمامها إلا

أن تتبعه. لذا قالت موجهة كلماتها للهواء احتراماً «لبروتوكول» عدم توجيه كلام المرأة إلى المحكمة مباشرة:

«نعم أوافق».

وفجأة شعرت كأن السماء قد انشقت من أثر هدير الهتاف الذي خرج من حناجر مئات الواقفين حولها.

ومنذ تلك اللحظة لم تفهم ماريبل شيئاً مما حدث حولها. أحست بأنها جزء من تمثيلية صامتة. حركة كثيرة ولكن كلمات قليلة. واصطف نصف أعضاء المحكمة بجوارها، بينما انضم الباقون إلى روم، ثم بدأت عملية المقايضة. قدم مؤيدو روم العملات الذهبية التي رفضها مؤيدوها بازدراء. وأعيد تقديم مزيد من العملات التي قبلها فريقها لكنه عاد وردها باعتبارها غير كافية. ودار الجدل حول المبلغ المقدم، وهل يليق بها. وكانت، وهي محاطة بمؤيديها، تحاول أن تلفت نظر روم إليها، لكنه إما كان منهمكاً في اللعبة التي تدور حولها، أو كان يتعمد عدم النظر إليها.

وأخيراً انتهت المقايضة وقدم أحد الحاضرين زجاجة من الشراب المعتق إلى روم ، الذي شرب منها بنهم حتى نصفها.وعندما اقترب من ماريبل شعرت بشيء من الخوف، إلا أن يديه كانتا حانيتين عندما قدم لها الزجاجة، وأفهمها أن عليها أن تشرب هي أيضاً. وعندما انساب الشراب في حلقها سعلت ثم شعرت كأن ناراً تحرق كل شريان فيها وتملؤها بوهج ساخن. وفجأة هتف الجمهور، وانحنى روم ورفعها بين ذراعيه. وتملكتها الدهشة لسرعة تصرفه، إلا أن تأثير الشراب منعها من المقاومة عندما تقدم بها إلى باب عربتها يتبعهما جموع الغجر وهم يغنون. وعندما دفع الباب بقدمه ودخل العربة لم تحتج. ولكن

عندما خرج الجمهور الضاحك وتركها بمفردها في فراغ من السكون بدأت تساورها الشكوك والمخاوف.

وأنزلها روم على السرير. وعندما بقي معها بدلاً من أن ينصرف، وأخذ ينظر إليها بدأت ترتعد. لكنه ضحك منها بلا رحمة ثم مد يده ليداعب كتفها العاري الذي كشف انحسار البلوزة عنه. وابتعدت عنه غير مرحبة بمداعبته، بينما أخذ الدم يتجمد في عروقها، وتوسلت إليه قائلة:

«أرجوك ان تنصرف».

«ماذا؟ وأخيّب ظن جميع أصدقائي فينا؟»

«تخيّب ظنهم...؟ إنني لا أفهم شيئاً مما تقوله...»

فاقترب منها أكثر وقال متمتماً:

«لا... بالطبع لا... كيف تستطيعين أن تفهمي؟»

ثم تابع ساخراً بعينين متقدتين كالفحم المشتعل:

«لقد اشتركنا لتونا في عرس على الطريقة الغجرية... فإليك يا زوجتي زوجك الجديد...»

٥ ـ اختطاف العروس!

كانت ماربيل تحملق في روم، بعينين شرستين لا تصدقان شيئاً. عندما دخلت كوري إلى العربة وهي تحمل ثوباً من الساتان الأبيض ودفعت بروم نحو الباب وهي تداعبه قائلة:

«أفهم سبب تلهفك، لكنك تعلم أن العروس دائماً تتمنع، ويجب أن تصبر وتناضل لتأسرها».

وبعد أن حياها روم مستسلماً وخرج، التفتت كوري إلى وجه ماربيل الشاحب وعينيها الخائفتين وسحبتها من السرير لتوقفها على قدميها قائلة لها:

«من الأفضل أن يبدو عليك الخوف، وتكفي أفراد القبيلة نظرة واحدة إليك ليعرفوا أنك عذراء تهاب زوجها الجديد».

زوجها! لقد وخزت الكلمة كيانها وحواسها وأعادتها إلى صوابها. لكنها استدارت بحدة نحو كوري قائلة:

«إنه ليس زوجي، خدعوني وجعلوني أشترك في تمثيلية لا تخصني ولا تعني لي شيئاً ولست ملتزمة بها».

«لكنك وافقت عليها وقد سمعتك بأذني».

قالت ذلك كوري مترددة وقد بان عليها الغضب.

«إن السؤال لم يحدد لي، ولم أعرف الشيء الذي وافقت عليه. فكيف لي أن أتنبأ أن المقصود هو الزواج، في حين أنني لم أتلق طلباً للزواج أو حتى اهتماماً من الرجل المشترك معي في هذا الموضوع؟ فالموقف إذاً أتفه من أن يستحق البحث والجدال».

وتوقعت ماربيل من كوري أن تجادلها أو تطلب منها الالتزام بحكم المحكمة، لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك، وسرعان ما قالت محاولة أن تهدئ، من ثورة ماربيل:

«نحن نساء الغجر لا يحاول أزواجنا مغازلتنا وكسب ودنا إلا بعد الزواج. ولا يحق للرجل أن يتقدم مباشرة لطلب يد الفتاة التي اختارها، بل عليه أن ينتظر حتى تتفق أسرته وأسرتها على مبلغ معين يدفع مقابل الزواج، لذلك اضطرت المحكمة أن تتدخل في حالتكما. بما انه ليس لروم ولا لك أسرة أو أقارب يقررون مصيركما. انقسم أعضاء المحكمة إلى فريقين، أحدهما يحدد ثمن العروس والآخر يحاول أن يخفض الثمن. وقد دفع فيك ثمناً غالياً بالرغم من أنك عنيدة، فإن روم مدين لك بمبلغ كبير لكسب ودك».

وسألتها ماربيل بمهانة:

«أتعنين أنهم اشتروني؟ وهل تتوقعين أن أعتبر تبادل العملات والمشاركة في شرب زجاجة شراب إجراءاً قانونياً ملزماً للزواج؟»

ومالت برأسها في كبرياء واستطردت تقول:

«إنني فتاة غربية متعلمة يا كوري، وعندما أتزوج سيكون ذلك من رجل يحترم احتياجاتي الفكرية والجسمانية. وبالتأكيد لن أقبل أن أباع مثل السلعة التي تعرض للبيع في المحال التجارية».

فهزت كوري كتفيها وانزلق منها الثوب الحريري الذي كانت تحمله إلى الأرض.

«فات أوان الاعتراض، فإن الجزء الأهم من الزواج قد تم فعلاً. فأنت الآن ملك لزوجك ولسانه يتكلم باسمكما، وتصرفاتك محسوبة عليه. فلا تحاولي أن تتخطي حدودك، غضب الزوج الغجري لسوء تصرفات

زوجته يجب أن يظهره للجميع حتى يحتفظ باحترامه في أعين قبيلته.
لذا فإن مبادئك الغربية المتعجرفة لن تجدي في مواجهة يد الزوج الغاضب».

فضحكت ماريبل باستخفاف، وقالت وهي تعلم أن في استطاعته إيذاءها:

«إنه لا يجرؤ على ذلك».

وعندما أخذت ترقب كوري وهي تحاول فرد ثوب الزفاف الذي التقطته من الأرض، كان ذهنها يحاول استيعاب المأزق الذي لا تصدق أنها وقعت فيه. فبالنسبة للفجر أصبحت الآن زوجة لأحد قادتهم، أي لشخص لا يتوقع الناس منه أية أخطاء. وبدون قصد أفلتت منها تنهيدة عندما تذكرت فجأة مظاهر الضجر التي ظهرت على روم عندما سمع حكم المحكمة، فبينما كانت هي تخشى أن ينال عقاباً تجهله، كان هو يتوقع، وهو على حق، أن النتيجة ستكون ربطها برباط الزوجية. ولكن ما هو موقف صوفي التي جاء اسمها دون أن تتوقعه على ألسنة الفجر؟ ولم يستطع أحد، ولا حتى كوري، أن يناقش معها سبب الولاء الذي يدينون به لخالتها. لكن اتضح لها أنها محبوبة منهم جميعاً، حتى أن روم فضل أن يتحمل التضحية بالزواج من امرأة يحتقرها على أن يخسر سيدة يحبها. عند ئذ ارتعدت من هول الموقف، وبهدوء توصلت إلى قرار، إن وجودها لم يجلب إلاّ المشاكل لخالتها و لروم ولقبيلة الفجر بأكملها، لذا شعرت أن من واجبها الابتعاد عنهم والعودة بطريقتها الخاصة إلى انكلترا قبل أن تتورط أكثر من ذلك في حياتهم.

كانت استعدادات الزفاف على أشدها عندما سمعت طرقاً على باب

غرفتها. ولم تهتم ماريبل بالتقدم لفتحه، فقد ظلت طيلة بعد الظهر بمفردها تخطط لهربها، ثم تعود وتستبعد الخطط من ذهنها المتعب لصعوبة تنفيذها. فلم تكن لديها نقود، كما لم تكن لها وسيلة انتقال، إلى جانب أن الملابس التي ترتديها ستلفت إليها الأنظار حتى في مدينة مزدحمة بالناس. وكان رأسها يعج بالأفكار عندما سمعت الطرق على الباب للمرة الثانية. وبتثاقل جرّت قدميها وتعثرت في مشيتها نحو الباب. وفجأة تذكرت أن كوري وروم لا يهتمان بالطرق على بابها عند دخولها، لذا هيأت نفسها لأن يكون الطارق غريباً عنها. وعندما رأته شهقت من المفاجأة وقالت:

« كاليا»

ودهشت ماريبل من جرأته على مخالفة تقاليد القبيلة بالمجيء إلى بابها. ففي عرف القبيلة لا تجرؤ زوجة قائدهم على استضافة شاب أعزب، لذا همست إليه قائلة وهي تنظر حولها في الظلام خشية أن يكون هناك من يتجسس عليها:

«انصرف ـ انصرف في هذه اللحظة، هل تسمعني؟»

وبخفة غزلان الغابة، انسل من ورائها وأغلق الباب خلفه. فقالت له بتوسل:

«هل جننت؟ قد يرجع روم في أية لحظة».

فأبدى كاليا دهشته. إذ كان من قبيلة فقيرة متخلفة لم يحاول أفرادها رفع مستواهم مما تسبب عنه تربية أفرادها الجياع على مبدأ الغش والدهاء الذي يظهرونه في قالب من المداهنة الماكرة والكلام المعسول. أخذ كاليا في ممارسة هذه الصفات معها فأضفى على صوته اهتماماً مفتعلاً بها، جعل قلبها الجريح يشعر نحوه بالشك

والتقدير وقال لها:

«كنت قلقاً عليك. لالا تنشر إشاعات في المعسكر بأن زواجك من روم كان مصلحة فرضت عليك بسبب تصرفي. ولا أطيق أن أكون بغبائي قد دفعت بك إلى أحضان رجل آخر. قولي لي يا زهرتي الجميلة إن لالا، كاذبة حتى أجعلها تدفع ثمن فعلتها».

وفعلاً نجح قلقه عليها في تخفيف بعض الألم الذي كان يعصر قلبها فردت عليه بسعادة الطفل الضائع الذي يبحث عن مأوى في عالم كبير.

«لالا لم تكذب يا كاليا. ويجب أن أهرب من هنا. هل تساعدني؟»

وطمأنها قائلاً وهو يخفي فرحته بانتصار خطته:

«سنهرب الليلة. لدي خطة مضمونة، إلا أن توقيتها شديد الأهمية أطلب منك أن تثقي بي وتنفذي تعلياتي بدون أسئلة».

انتظر حتى أومأت برأسها موافقة، وقال لها شارحاً خطته بسرعة:

«اشتركي في احتفالات الزفاف، وتظاهري بأنك عروس سعيدة. وهكذا لن يشك أحد في شيء وسيكون لخطتي حظ أوفر في النجاح. وعندما يتقدم الليل وينهمك الجميع في المرح والشراب، سيطلب الحاضرون من روم أن يقوم بطقوس العرس، وحينئذ سأقوم أنا بدوري. وستكون على بعد أميال قبل أن يتنبه الغافلون ويعدوا جيادهم للحاق بنا».

وداخل ماريبل الشك عندما بدت على فمه ابتسامة فيها دهاء وخبث. لاحظ كاليا ترددها فقال لها:

«إما هذه الليلة أو لا... ولا داعي لأن أذكرك أن غداً ستكون الفرصة قد فاتت...»

وبدا عليه الرضى عندما عاد اللون إلى وجهها مؤكداً له فهمها للموقف. استعد للانصراف وقال عندما وصل للباب:

«ابذلي قصارى جهدك، وتظاهري بالمرح خاصة تجاه روم، فالأسد الشبعان سيستخدم طاقته في الهدير. لذا احرصي على أن تظل مخالبه حلوة كالعسل».

وسرعان ما انبعثت في الجو رائحة الطعام اللذيذ الذي كانت النساء منهمكات في طهوه. فكان الدجاج والأوز يكتسب لوناً محمراً وقد عطر بالزعتر والتوابل، ووضع بداخله حشو من التفاح والزبيب. ووضعت أكوام البصل والبطاطس المحمرة وورق الكرنب المسلوق والمحشو باللحم المفروم والأرز المتبل، وكلها معدة لتقدم مع قطع اللحم الكبيرة المحمرة والمتبلة باليانسون. وكانت الموائد ممدودة وعليها صحون كبيرة مملوءة بالخس والبندورة والخيار المملح، واللوبية المخلوطة بالفلفل الأحمر وصحون من سلطة البطاطا وقطع الجبن. أما الخبز والزبد فقد وضعا في أكوام متراصة كلها معدة لاشباع شهية الناس الذين كانوا يشحذونها بالشراب.

وحسب التقاليد التي شرحها لها روم، لا يأكل العروسان حتى يتم تقديم الطعام للضيوف. وعملاً بهذه التقاليد عاونته ماريبل في تقديم الطعام للمدعوين، فكانت تطوف برشاقة بثوب زفافها الأبيض الذي كان يبدو في ضوء القمر وكأنه يذوب في نوره. ولم يتركها روم مجلسها طيلة السهرة تقريباً. ورغم أنها كانت تعلم أنه يلازمها تمشياً مع التقاليد إلا أن تقاطيع وجهه شجعتها على أن تسأله:

«لماذا لم تستخدم الزهور في الحفل؟ فإن الموائد تنقصها هذه اللمسة الجمالية الأخيرة».

فأجابها بطريقة جعلت قلبها يسرع في دقاته:

«يرى الفجر أنه يجب ترك الزهور وشأنها كجزء من الطبيعة. كما أن الزهور المقطوفة رمز للموت. ألسنا نحتفل الآن باستمرار الحياة؟»

استمرار الحياة؟ ولفترة كاد الانفعال يتغلب عليها، لكنها سرعان ما ضغطت على نفسها حتى عادت لعالم الواقع، وكادت تتهمه بتلفيق هذه الأكذوبة الكبيرة، أكذوبة الزواج. عندما تذكرت تحذيرات كاليا لها وتذكرت رغبتها في الرحيل والابتعاد عن روم وقبيلته.

وأصبح من السهل كلما أرخى الليل سدوله أن تتلاقى نظرات روم بنظراتها من فوق رؤوس ضيوفهما المرحين. وكلما تباعدت نظراتها كانت تبحث عنه من فوق رؤوس الحشد الذي يفصلها فتعود إلى جانبه كما يعود الحمام الذي يلجأ لعشه. وأخيراً، وبالرغم من مطالبة الناس ببقائهما معهم، وضع ذراعه على كتفيها وجذبها إلى جانبه بحركة تملك هزت بشدة إيمانها الراسخ بحرية المرأة. وبينما كانا يرقصان ويضحكان ويأكلان معاً كانت تنتظر حتى تهدأ مشاعرها، ولكن لمساته ظلت تثير أعصابها، كما شعرت أن صوته الهادىء الخافت يبدو في أذنها كأنغام القيثارة.

كان يحتضنها بقوة أثناء الرقص، وكانت الموسيقى تنسجم مع مزاجه الذي تحول فجأة إلى عاطفة متأججة. وفي خلفية المكان وبينما كانت تنساب إلى آذانها أنغام حالمة من كمان بعيد، اقتربت شفتا روم من أذنها قبل أن تستقرا برفق على خدها المتورد وقال لها ضاحكاً:

«جلدك مثل الخوخة. ترى ماذا تفعلين لو خطر لي أن أعضك؟»

وضم جسدها المرتعش إليه بقوة وضحك بحنان عندما دفنت وجهها في كتفه. وأخذا يتمايلان في ضوء القمر ويقدمان للمتفرجين من الغجر

صورة جميلة لعريس وسيم مبتسم غارق في سحر جمال عروسه الشابة الخجول.

نسيت ماريبل خطة كاليا وهي تستسلم تماماً لعواطف روم فأسندت رأسها على نبض قلبه الذي يدق بثبات وثقة. وانتابها شعور جارف جعلها تؤمن بأنها ستعيش سعيدة إلى الأبد بين هاتين الذراعين اللتين تحتضناها بحنان زائد. كانت تحت سحر تلك اللحظة السعيدة بحيث جاءت الصدمة عنيفة عندما انتزعتها من بين أحضان روم أذرع قوية في مداعبة سخيفة إذ اندست بينهما جماعة من الصبية يضحكون وأبعدوهما عن بعضهما تماماً. وعندما التف حولها الصبية في حلقة متماسكة الأيدي شعرت بحرمانها من روم، ثم تذكرت ما سبق أن قالته كوري لروم من أن عليه أن يناضل لينال عروسه.. فبالرغم من إتمام مراسم الزواج ودفع ثمن العروس والاحتفال بالرباط المقدس بينهما إلا أن على العريس أن يناضل من أجل استلام عروسه له.

وفي بداية المناوشات التمهيدية المرحة، انتظرت ماريبل وقد انعكس وهج نار المعسكر عليها وأظهر جمال قوامها المشرق، وفي تلك اللحظة القصيرة بحثت عيناها عن روم ووجدته يبعث لها بابتسامة حلوة وفي الحال أخذ قلبها يغني رغم تحملها لدفع الصبية لها وجذبها.

وكلما ازدادت محاولات الابعاد زاد المرح، وفي ظلام الليل لم يعد في استطاعة أحد التعرف على غيره، لكنها شعرت بأن اتكاثف حلقة أعوانها حولها أكثر فأكثر معناه تغلب فريق روم عليهم. وزاد الحماس لدرجة أنها لم تستطع حبس صيحتها عندما خرجت يدان من الظلام تبحثان عنها، وكان الصوت الذي وصل إلى أذنيها جاداً وهو

يقول:

«اتبعيني بسرعة واجري بأقصى ماعندك».

لكنها حاولت الافلات منه وهي تقول:

«كلا يا كاليا... لقد غيرت رأيي ولا أريد الرحيل».

ورغم أنها لم تستطع رؤية وجهه إلا أن غضبه ظهر في اشتداد قبضة يده عليها. ومع ذلك صمم قائلاً قبل أن تنزل يده على رأسها لتلقي بها أرضاً وسط الألم والظلام.

«بل يجب أن ترحلي!»

وساعدت برودة هواء الليل على إعادتها لرشدها وإخراجها من هوة الألم التي سقطت فيها لتواجه كابوساً آخراً. وأدركت ماريبل أن أية محاولة للكلام بصوت يعلو على صوت العنان ووقع الحوافر لن تأتي بنتيجة: تشبثت بجانب العربة وقد تغلب عليها ألم آخر أقوى من ألم رأسها النابض وهو حسرة قلبها وقد أخذت أضواء المعسكر بناره الموقدة تتباعد تدريجياً حتى اختفت تماماً.

ورغم أن عينيها لم تدمعا، إلا أن العبرات خنقتها بينما أخذ كاليا يضرب الحصان ويدفعه بلا رحمة. وعندما اصطبغت سماء الليل باللون البرتقالي الذي ينبيء ببزوغ الشمس انحرف عن الطريق العام ودخل ساحة بالأشجار حيث أوقف الحصان وقال لماريبل آمراً:

«انزلي... توجد مؤن في العربة، لكننا لا نستطيع أن نكشف عن مكاننا بإيقاد النار. سنكتفي بأكل الخبز واللحم البارد».

نظرت إليه ملياً قبل أن تجيب ببرود:

«إذا كنت في حاجة إلى طعام، أعده لنفسك. قلت لك إنني غيرت رأيي وإنني أريد البقاء حيث كنت، ومع ذلك ضربتني».

وبدون وعي مرت بأناملها على الجزء المؤلم في رأسها وقد استعادت في ذهنها اللحظات المخيفة المذهلة التي مرت بها. لم يسبق أن ضربها أحد حتى في طفولتها، وكانت هذه المعاملة الوحشية التي تعرضت لها من ذلك الرجل أكثر مما تحتملها.

وفتح كاليا فمه غاضباً مثل حيوان ثائر وأمسك بذراعها وسحبها من العربة وألقى بها أرضاً ثم قال لها:

«إذاً غيرت رأيك!»

واستطرد يقول وهو يتشفى فيها بصورة جعلتها ترتعد:

«إنني أرثي لحالك. فإن خطتي لمساعدتك كانت أثمن مما تستحقين. لكن روم بورو رجل غني بحيث يستطيع أن يدفع الثمن الذي سأطلبه منه لاسترداد عروسه سالمة».

وجال بنظره الصارم على وجهها ثم أضاف بحدة:

«بالطبع، إذا أتعبتنا ورفض دفع المبلغ فلن أكون مسؤولاً عن سلامتك».

ثم تظاهر بالرثاء لحالها وهو يستمتع بخوفها وقال:

«لقبيلتي مثل يقولونه وهو، كلما كان لون ثمرة التوت داكناً أكثر كلما كان طعمها أحلى. إن قوامك نحيل ولونك شاحب أكثر مما أحب. ولكن إذا لم يدفع روم فلا بد أن أرغم نفسي على...»

وكان يعني ما يقول... فقد كان شريراً بدون رحمة. وهتف بها هاتف ألا تستهين بعبارته التي يشير بها إلى قدرة روم على أن يدفع مقابل إعادتها إليه. إن كاليا قد يرغمها وهو في حمأة غضبه على أن تدفع ثمناً غالياً لتشبع رغبته. لذا التزمت بالصمت وهي تتضرع إلى الله أن يوحي إليها بالحل. وتساءلت كيف توقعت أن يراعي مثل هذا الغجري

الشرس مشاعرها أو كبرياءها.

ضغطت ماريبل على نفسها وأعدت له الطعام بينما أخذ هو يعنى بأمر الحصان، وكان عصبياً ومتيقظاً لأي صوت يأتي من حوله حتى ولو كان وهمياً. وعيناه الزائغتان تفتشان بقلق بين الأشجار وكأنه يتوقع ظهور أحد في أية لحظة، ولكن عندما امتد النهار بدأ يهدأ وقال لها إنه يعرف مخبأ يمكنهما الاختفاء فيه إلا أنه بعيد عن مكانهما ولا يريد أن يجازف بالسير نهاراً، لذا رأى أن يستقرا حيث هما حتى يأتي الليل قبل أن يستأنفا رحلتهما.

وكانت عينا ماريبل مثقلتين بالتعب لكنها صممت على أن تظل مستيقظة أملاً في أن يتغلب تعب كاليا، على مقاومته للنوم. ولاحظت وهما جالسان أن رأسه أخذ يسقط على صدره من شدة النعاس. وعندما تحولت أنفاسه إلى شخير بدأت تتسلل مبتعدة عنه وهي تمشي بخطوات حذرة قصيرة نحو الأشجار المحيطة بالمكان. وكان تسللها بطيئاً بحيث بدا لها الوقت وكأنه ساعات طويلة قد مرت قبل أن تصل إلى بداية الغابة المحيطة بهما، وشعرت بالدم ينبض في رأسها ويطغي على صوت شخير كاليا. وتوقفت برهة لتلتقط أنفاسها ثم بنظرة أخيرة نحوه هربت من خلال الأشجار التي تغطي المكان وجرت بأقصى سرعتها في اتجاه الطريق العام.

شعرت كأن رئتيها تحترقان من التعب وتجعل من تنفسها جحيماً عندما وصلت إلى حافة الغابة ونظرت إلى الطريق. وكان وجهها ويداها دامية من الجروح وثوبها الحريري ممزقاً. إلا أن منظر الطريق رفع من معنوياتها وخفف من وقع خطاها وجدد قواها ومشت وهي تترنح. وشعرت ماريبل بالارتياح ونظرت حولها باحثة عن أثر لأية

حياة لكنها لم تر شيئاً يتحرك حتى ولا بارقة أمل في دخان يتصاعد من مدخنة منزل بعيد. وفجأة سمعت عن بعد خطوات غاضبة مسرعة نحوها من بين الأشجار وأطلقت شهقة. وبجهد جهيد أخذت تجري، إلا أن تقدم كاليا كان سريعاً كما كان تعبها شديداً لدرجة أنها ارتاحت عندما قبض بشدة على كتفها، وأدارها لتواجهه وكأنها دمية لا إرادة لها. ثم أغمى عليها قبل أن ينزل بيده على رأسها بضربة لو تمت، لقضت عليها نهائياً.

٦ ـ عقاب الغجر

وعندما عادت إلى رشدها كانت ممددة بين الأشجار، تحز في معصميها وكاحليها الحبال. بينما دست في فمها قطعة قماش خشنة عليها لثام يثبتها في مكانها. أما كاليا فكان ممدداً أمامها مباشرة تحت شجرة وقد علا شخيره دون أن يأبه بآلام سجينته، وهي ملقاة تحت وهج الشمس في منتصف النهار.

وعندما استيقظ من النوم كانت ماريبل في حالة هذيان وإعياء شديدين من آلام الحبال المكبلة بها، وحرارة الشمس واللثام الخانق الذي على فمها. ولم يبد لها أية رحمة حين انحنى ليحل القيود التي بدأت تؤلمها وكأنها قيود حديدية. وسألها متلمساً اللثام وهو يفكر، هل يرفعه أو يتركه.

«هل أفهم أنك مستعدة للطاعة الآن؟»

فأجابته من بين شفتيها المتورمتين وبعينيها المتوسلتين:

«نعم».

ولاحظت على فمه حركة استهزاء بها، إلا أنه فك الحبال وتركها تدلك معصميها وكاحليها لتنشط الدورة الدموية. ومع ذلك لم تلمه أو تنهره حتى/عندما قال:

«هذه مجرد عينة لما سيحدث إذا حاولت الهرب ثانية. فإن وجودك معي معناه الثروة في جيبي، وسيكون غضبي شديداً إذا كانت هناك محاولات أخرى تعرقل خططي. إنني أرثي لرغبتك في العودة لزوجك وأرجو أن تكون لهفته عليك مماثلة للهفتك عليه».

وتردد صدى ضحكته في أرجاء المكان، بينما أخذ يبتعد عنها ليفك جواده. وحاولت جاهدة أن تكتم رغبتها الجامحة في الرد عليه بالاهانات التي يستحقها والتي تضطرم على شفتيها.

وبقي على حلول الليل ساعتان قضتهما في إصلاح ما أفسدته القيود من مظهرها، فاغتسلت بالماء البارد لتساعد على تخفيف الورم من شفتيها وذراعيها ووجهها، كما حاولت بأصابعها المبتلة اصلاح شعرها المشعث وتركته أملس ملتصقاً برأسها. أما ثوبها فكان مشكلتها الكبرى، فقد تمزق إلى قطع مستطيلة تمتد من ركبتيها حتى الأرض. فبدأت في قطع الأجزاء الممزقة منه مراعية أن يكون ذيل الثوب متساوياً بقدر الامكان. وبعد أن رفعت من معنوياتها كامرأة، عادت ثانية إلى المكان الفسيح فوجدت كاليا قد ربط الحصان بالعربة ووقف ينتظر ووجهه متجهم. وبدون كلمة ركبت ماريبل العربة وقد أفزعتها فرقعة السوط وهو يضرب به ظهر الحصان. وبقفزة فجائية كادت تلقي بها أرضاً، تحركت العربة ثم توقفت فجأة وتراجع الحصان إلى الوراء فاتحاً خياشيمه وباسطاً أذنيه دلالة على الخوف من شيء ظهر في طريقه. فأخذ كاليا يشتم وهبّ واقفاً، وراح يشد العنان ليحث الحصان على التقدم، ولم يستطع أن يرى شيئاً في ظلام الليل. لذا كان جزعه كبيراً عندما سمع صوتاً آتياً من جهة الأشجار وهو يأمره قائلاً:

«انزل يا كاليا، انزل لتنال عقابك».

وخرجت من فم ماريبل كلمة واحدة:

«روم».

وفي لحظة كان المكان يعج بعدد كبير من الغجر الذين خرجوا من بين الأشجار وقد تجهمت وجوههم وتحفزوا للانتقام وهم يطالبون بإقرار

العمل وإنزال الجزاء. وصاحت ماريبيل وانسلت من جانب كاليا
الذي سمّره الخوف في مكانه. وجرت نحو روم فدفعها خلفه لتنضم
إلى مجموعة المتفرجين الذين كانوا ينتظرون بأنفاس محبوسة أول خطوة
يتخذها قائدهم لينتقم من خصمه.

وأرخى الخوف قبضته على حبال كاليا الصوتية، فتمتم قائلاً:
«لقد رجتني المرأة أن أساعدها، فهي تكرهك يا روم بورو حتى أنها
عرضت عليّ رشوة لكي أعاونها على الهرب. إن قبيلتي فقيرة وحاجتها
شديدة إلى المال فلا تلمني على فعلتي»

أما احتجاجات ماريبيل على اتهامات كاليا وادعاءاته فقد
أخذتها همهمة الرثاء التي تصاعدت من الغجر المحيطين بها. وظل
روم الوحيد الذي لم يتأثر ولم تظهر عيناه أية دلالة على اللين، بل
تجاهل توسلات كاليا وكرر أوامره:

«انزل يا كاليا واحضر سوطك معك».

وردد الرجال بغضب وفي همس مخيف، عبارة واحدة هي: نزال
بالسياط! فتجمدت ماريبيل من الخوف وضغطت على نفسها لتشاهد
نوعاً آخر من الطقوس الهمجية. كان روم قد تحدى الرجل الآخر،
وإذا تراجع الآن، فإنه سيبدو للغجر وكأنه أرغم على قبول الاهانة
بدون الرد عليها.

وفي الحال تظاهر كاليا بأنه المغلوب على أمره فبتراخ أطاع أوامر
روم، ومد يده إلى سوطه الذي كان حتى الدقائق القليلة الماضية
يلهب به ظهر الحصان. وتظاهر كاليا بالمذلة عندما نزل من العربة،
إلا أن روم لم يسمح لذهنه أن ينصرف عنه لحظة. وبينما هو يعدّ
قبضة سوطه انهال كاليا بالضرب. وتلت ذلك شهقة هامسة تبعتها

ضربة السوط وأمام عينيّ ماريبيل ارتفعت يد روم لتغطي خده
الدامي الذي هوى عليه سوط كاليا. وأظهر الحاضرون استنكارهم
واستياءهم لتصرف كاليا، لكن سرعان ماجاء رد فعل روم، فبسط
فرد سوطه الجلدي الذي يشبه الثعبان، وركز نظره على وجه كاليا
الماكر، ودار حوله بدهاء معبراً عن غضبة حتى أن ماريبيل شعرت
برعدة خوف نيابة عن خصمه. وابتعد الغجر المتفرجون، وتركوا مسافة
كافية يتفادون بها وصول أطراف السياط إليهم. وكانت أنفاسهم هي
الوحيدة المسموعة.

ومرة أخرى ضرب كاليا بسوطه إلا أن روم قفز إلى الخلف
وتفادى السوط وبغضب شديد بدأ روم يناوش غريمه، ويضطره إلى
تصويب ضربات طائشة استطاع تفاديها. وبكبرياء شديدة دار حول
كاليا الذي أخذ يتصبب عرقاً ويتقهقر إلى الوراء بحيث وضحت
إهانته للجميع. وأخيراً أثارته نداءات الاستهزاء التي وجهها إليه
الرجال فبصق كاليا نحو روم بازدراء، قبل أن يتلوى من الألم
الذي أحدثته ضربة سوط على فمه. فبحركة سريعة من الرسغ انتقم
روم منه.

وكادت ماريبيل أن تصاب بالغثيان عندما سقط كاليا على
الأرض وهو يمسك بفمه المقطوع بأصابعه الدامية. وتراجعت مترنحة
ودموع الخجل والخوف تسيل على خديها. كانت حواسها منهارة حين
قال لها روم:

«وفري دموعك، فستحتاجين إليها فيما بعد لاثبات تهمتك. فإذا شعرت
أن عقاب كاليا صارم فاحمدي الله أنك لم تتزوجي غجرياً أصيلاً،
فإن العقاب الذي يوقعونه بالزوجة الخائنة وحشي لكنه رادع جداً».

واستدارت ببطء لتواجه روم وقالت هامسة:

«ماذا سيفعلون بي؟»

«إنهم سيتفرجون فقط بينما أعاقبك. وأنا على استعداد للتنازل عن هذه الطقوس، لولا أنهم يتوقعون مني باعتباري قائدهم معاقبة خيانة زوجتي بالطريقة التي تقبلها القبيلة، وهي الطريقة الجسمانية».

وبينما هي تحملق فيه بعينين زائغتين، ارتجف فمه متأثراً بألم عميق. وبدا عليه ضيق لا يحتمل فجذبها وقال لها بمرارة:

«ماذا فعلت هذا؟ لماذا؟ لم أكن في حاجة لأشرح لك أن طقوس الزواج لم تكن لها أهمية بالنسبة لي أو لك، وأنها ليست ملزمة قانونياً أو أدبياً بل هي مجرد نزوة أصدرتها المحكمة ويمكن نسيانها بمجرد سفرك».

وتأمل وجهها الشاحب وتمهل عند عينيها اللتين تحيط بهما الكدمات. نظر إلى فمها الذي لم تعد تستطيع السيطرة على ارتجافه وقال:

«ليس هناك ما يخيفك مني. فكل ما أريده هو أن أفي بوعودي لصرفي وأخرجك بسلام من هذه البلاد. ربما كان يتعين عليّ أن أطمئنك من هذه الناحية، لكني اعتقدت أن دوافعي واضحة لا تحتاج لمزيد من التفسير»

وقالت ماريبل بتردد وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها:

«لست متأكدة مما تشير إليه. لكن إذا كان هو ما يدور بخلدي، فاسمح لي بالقول إن غرورك كبير. لقد طلبت من كاليا مساعدتي لأنني سئمت السفر مع قبيلة من المتوحشين الذين تقززني خيامهم».

ولم يكن روم في حاجة للتظاهر بالغضب عندما قاد العربة بسرعة طائشة إلى داخل المعسكر. وكان الرجال الذين رافقوه في البحث عن كاليا قد عادوا قبله. ودلت نظرات النساء وشفاههن المطبقة على

ـ القصة التي وصلت إلى المعسكر قد جعلتهن يدن ماريبل. واندمج روم في دور الزوج الغاضب، فقفز من العربة وانتزع ماريبل بقسوة من مقعدها وأوقفها على الأرض بعنف، شعرت بألم في فقرات ظهرها. وكظم غيظه عندما صاحت لالا من بين جموع الناس:

«إنها عنيدة يا روم بورو، فيا لعارك... إذ بلوتنا بمخلوقة لا تستطيع ترويضها».

وكانت ماريبل منهكة لا تقوى على المجادلة والشجار. فقد غطت مخاوفها حتى على ثقتها بأن غضب القبيلة لن يهدأ حتى تهان وتضرب علناً. وأشفقت على روم لاضطراره لمواجهة موقف يتطلب تصرفاً كانت تعرف بغريزتها أنه كريه على نفسه، وأخذت ترقبه بهدوء ولكن بلهفة لترى نتيجة صراعه ضد ولائه لشيئين منقسمين: ما تنتظره قبيلته منه. وكراهيته المتأصلة للعدوان الجسدي على امرأة. ولم يتوقع أحد غيرها أنه قرر أخيراً اتباع الحل الوسط. فعندما مد يده ليمسكها من كتفيها ويهزها لتذعن لارادته همس من بين شفتيه المطبقتين:

«تظاهري بالألم... اصرخي وصيحي وافعلي أي شيء يرضي تعطشهم للانتقام»

لكنها لم تقو على ذلك وشعرت كأن حواسها مشلولة بسبب العذاب الذهني الذي عانت منه. ولما يئس من رفضها التعاون معه، عاد وهزها بعنف ثم ألقى بها بوحشية فوق كتفه وأخذ يخطو بها نحو العربة. وحينئذ سمع صوت تبرم الحاضرين وهم يقولون:

«إن الحياة بين الأغراب جعلت قائدنا ضعيفاً».

ورد بعضهم قائلاً:

«لن يظل روم إلى الأبد راضياً عن مشاركتنا حياتنا. ويجب أن تستعد لليوم الذي يقرر فيه أن يعود نهائياً إلى أهله وعشيرته».

وكانت ترنّ في أذنه عبارات اللوم المشابهة، عندما خطا داخل العربة ودفع الباب ليغلقه بقدمه وقال لماربيل وهو ينزلها إلى الأرض:

«أيتها الحمقاء الصغيرة، هل كان من الصعب عليك التمثيل لترضيهم؟ ألم تشعري بتعطشهم إلى رؤية دموعك وسماع تضرعاتك وتوسلاتك أو أية دلالة أخرى على العذاب الذي يتوقعون أن تعاني منه الزوجة النادمة؟ لا شك كان في مقدورك اختلاق شيء أكثر إقناعاً من نظرة القطة الخائفة التي بدت على وجهك».

وكان وهو يقول ذلك ممسكاً بذقنها بيد قلقة حتى انعكس غضبه في العينين الرماديتين. وأخيراً ارتجفت عندما قال لها آمراً:

«إنهم ينتظرون في الخارج، ويأملون أن تكون شكوكهم في غير محلها. وأن يكون قائدهم المختار قادراً على كبح جماح امرأة متمردة».

ثم تابع كلامه بنعومة خطيرة:

«سواء تعاونت أو لم تتعاوني فإنني أنوي ألا أسبب شيئاً من خيبة الأمل للقبيلة».

فحملقت ماربيل فيه وتنبهت إلى معنى خفي في كلماته ثم تراجعت وقد انتابها الخوف لأول مرة. ليس من غضبه ولكن من الابتسامة الغريبة التي بدت على فمه فاستعطفته بوجهها الشاحب:

«كلا... أرجوك، كلا».

لكنه تقدم منها ووجهه يعبر عن تصميم أثار الرعب في نفسها وهو يقول:

«بل نعم!»

ولم تسعفها حواسها المتجمدة من الخوف لترد على مطالبه الملحة. لقد انتهى من التمثيل. فلم يكن تصرفه هذا من أجل إرضاء عروسه بل ليرضي رغبة أثارتها فيه وجعلته يود الانتقام منها بأن يراها تتلوى وتطلب عفوه ورحمته.

لقد كانت الضربات في نظرها أهون من شفتيه اللتين حاولتا الانتقام منها بطريقة أخرى. تمثلت فيها القدرة الهائلة على الحب الذي كانت مستعدة لأن تقدمه له طواعية في وقت من الأوقات. وعندما ابتعد عنها ليتمتع بجمال كتفيها قاومته بكلمات غاضبة خرجت من حنجرة ضاقت بالانفعالات. وعندما دفن وجهه في رقبتها، ضحك متهكماً مما أثار روح العدوان المكبوتة بفعل العاصفة العاطفية التي كانت قد تحملتها.

وأخيراً أبعدته عنها وصرخت صرخة عالية اخترقت جدران العربة وخرجت إلى آذان جميع سكان المعسكر، وبغضب شديد أنشبت أظافرها في وجهه وركلته وداست على أصابع قدميه بكعب حذائها. وثار عليها وعاقبها بأن أمسك بذراعيها وضمها إلى جنبيها مما تسبب في اختلال توازنها وسقوطهما معاً فوق صوان صغير تطايرت منه الصحون وكسرت على الأرض بصوت دوى في أرجاء العربة. وبمجهود كبير أفلتت منه وتراجعت لآخر العربة وهي تقابله بعاصفة عاتية من الغضب إلا أن روم كان مشغولاً عنها بشيء آخر فقد أخذ ينزع قطع الصيني العالقة بملابسه ثم قال لها بهدوء:

«ستنطلي عليهم هذه الخدعة. فكل ما علينا الآن هو أن نلزم الهدوء ونترك الباقي لمستمعينا الذين سيتصورون أن المرأة المتمردة قد روّضت وأننا الآن في طور المصالحة».

ونزلت ذراعاها إلى جانبيها وقد صيغ مضمون كلامه وجنتيها بحمرة الخجل والاذلال معاً. وهي تلحظ على وجهه تعبيراً ينم عن تسليته بهذا الموقف.

ولم يكن هناك بد من بقائه في العربة تلك الليلة إذ أن المبيت خارجها قد يثير الشكوك في أذهان رجاله. لذا فرد بطانيته على الأرض ورقد عليها. وبعد أن تمنى لها ليلة طيبة استغرق في النوم. ولمدة ساعات طويلة ظلت ماريبل مستيقظة في سريرها وهي في حالة حذر لا تصدق أنه قد عاد إلى حالته الطبيعية. وبامتداد الليل وانتظام تنفسه بعد استغراقه في النوم، سمحت لأطرافها المتوترة بالاسترخاء رغم استمرار تضارب الأفكار في ذهنها. ورفعت أصبعها لتتلمس شفتيها الساختين وكأنه قد تركها تواً. ذلك الموقف الذي خدرها لدرجة الاستسلام، جعلها تخوض حربين، واحدة ضده والأخرى ضد صوت داخلي دفعها إلى الانسياق لاغراء اللحظة. ترى ماذا ستكون النتيجة إذا استمعت لذلك الصوت؟ هل كانت ستتعرض للصد؟ ثم انتابتها نوبة من الخجل جعلتها تستسلم لنوم عميق.

واستقبلت اليوم الجديد برائحة القهوة الطازجة وهي تنساب في أرجاء العربة. وكان روم قد حلق ذقنه وبدا عليه النشاط وهو ينحني عليها عندما فتحت عينيها وابتسم لها قائلاً:

«هل أفزعتك؟ اشربي هذا، فستساعد القهوة على إفاقتك وأبعاد الأحلام عن عينيك».

وشربت القهوة بارتياح وتقابلت أعينهما في جدية كالأطفال من فوق حافة الفنجان ثم قطب جبينه واستدار قائلاً:

«عندما تنتهين سأغير فراش السرير».

وقال مفسراً عبارته وقد بدا التساؤل في عينيها.

«هذا ما يتوقعه الفجر مني، وهي عادة أخرى غريبة يجب أن أتحملها».

ونظرت إليه ماريبل بدهشة وقد حيرتها لهجة القلق البادية على صوته، إلاّ أن وجهه كان لا يعبر عن شيء. فأطاعت وشربت القهوة وغيرت ملابسها بعد أن أدار ظهره لها ثم جمعت الملاءات وأعطتها لس فقال لها بأدب، وهو يحاول أن يتفادى نظراتها الحائرة:

«ربما تودين الاغتسال بينما أتولى أنا أمر الفراش».

وعندما شعرت أنه يريد التخلص منها حملت منشفتها وخرجت من العربة. ثم عادت ثانية مدفوعة بفضول لم تستطع مقاومته. وعندما وصلت إلى العربة بدأت تسير ببطء وهدوء ولم تفضح وقع أقدامها الصامته أمر عودتها. كان روم قد وضع الملاءات على السرير وانحنى عليها يحاول عبثاً أن يسيل خطاً من الدم فوقها من جرح في أصبعه وعندئذ نسيت ماريبل حذرها واندفعت إليه قائلة:

«إنك تنزف يا روم».

واستدار اليها بغضب وأسقط في جيبه المطواة التي كان يمسكها وقال باقتضاب:

«إنه لا شيء... مجرد جرح بسيط».

شعرت أنها كانت تتجسس عليه وهو ذنب لا يغتفر في أعين الفجر. لذا استدارت وهي تحاول ألا تستجيب لرغبتها الطبيعية في تغيير الملاءة التي جفت عليها نقطة الدم. وعندما اتجهت نحو الباب سمعت صوتاً من الخارج شل حركتها. انها لالا تصيح قائلة والحقد يتخلل كلماتها:

«حضرنا لنرى فراش العرس يا روم بورواه».

وقالت شيئاً بصوت خفيض أثار الضحك بين زميلاتها. واستدارت ماريبل بهدوء مطالبة بشرح لكلامها. ولم تتوقع أن ترى روم محرجاً، فقد كان سيد المواقف كلها حتى تلك اللحظة. فبعد أن هز كتفيه باستسلام ونظر إليها نظرة يائسة، رفع الملاءات الملوثة بالدم وخرج من العربة وأسقطها عند أقدام النساء. وفي الحال أمسكت لالا إحداها ونشرتها في ضوء النهار وكانت هي الملاءة التي لوثها روم بدمه. وعندما رأتها لالا قطبت جبينها من الغيظ، وبحقد بالغ قالت لماريبل:

«ليس غريباً أن تأخذ المرأة المشكوك في عذريتها حمامة معها في ليلة زفافها»

وعندما استدارت لالا للانصراف، بدأت ماريبل تفهم مقصدها. وشعرت بمهانة أفقدتها القدرة على الكلام كما لم تستطع أن تواجه عيني روم. فرغم أنه حاول جاهداً أن يجنبها هذه الاهانة الأخيرة إلا أنها شعرت نحوه بكراهية ولامته على العار الذي نزل بها وجعلها لاتجرؤ على رفع عينيها إلى هؤلاء الذين شاهدوا إهانتها.

ورغم حزنها فقد وجدت ماريبل أنه من الصعب عليها في الأيام التالية أن تتجاهل التغيير الذي طرأ على تصرف نساء القبيلة تجاهها. فقد غمرنها بالاحترام الواجب تقديمه إلى عروس قائدهن وحاولن بشتى الطرق أن يشعرنها بأنها أصبحت واحدة منهن. ومما طمأن مشاعرها استعداد كل واحدة من نساء القبيلة لتقديم الخدمات الصغيرة لها أو توجيه الدعوات لتناول الطعام مع أسرتها. أما اسم كاليا فلم يرد على لسان أحد ولكن قبيلته لم ترحل عند انفضاض المؤتمر الذي عقد لمحاكمته إلا بعد أن حكمت المحكمة عليه وعلى قبيلته بأن يتجولوا

إلى الأبد في وحدة قاتلة. إلا أن الحادث ترك شيئاً واحداً في ذهن القبيلة وهو أنهم أطلقوا على ماريبل اسم «الأوزة المتوحشة» إشارة إلى أسطورة غجرية قديمة تقول إنه كان من المستحيل ترويض تلك الأوزة، ورغم أنها كانت تفلت من صاحبها، إلا أنها كانت دائماً تعود إليه!

وبدأت القافلة تسير، تقربها بمرور الأيام من نقطة رحيلها عن روم، إلا أن انكلترا كانت ما زالت بعيدة. ورغم أنهم كانوا يسيرون في طريق غير مباشر تفادياً لاجراءات الأمن المفروضة إلا أنهم اضطروا لعبور حدود النمسا قبل التأكد من الوصول إلى بر الأمان. وسألت ماريبل روم قائلة:

«لماذا يعتبر السفر عن طريق تشيكوسلوفاكيا أسهل من السفر عبر ألمانيا الشرقية؟»

فمد قدميه بطريقة تدل على تبرمه بجمود حركته مدة طويلة. فقد هطل المطر طيلة اليوم وغمر الأرض بحيث لم يستطع أي غجري أن يبيت في العراء في تلك الليلة. وهي فكرة شغلتها طيلة الساعات التي قضاها روم في دراسة الخرائط العديدة الممدودة أمامه ورسم خطة السير. وأخيراً أزاح الخرائط ووجه لها اهتمامه وقال:

«لدينا أصدقاء كثيرون في تشيكوسلوفاكيا، كما أن إجراءات الأمن هناك ليست مشددة. فمثلاً يوجد قليلون مثل سيرجي إيفانوف ولذلك تفضل القبيلة الابتعاد عن الخطر الموجود دائماً».

وكان ذكر سيرجي إيفانوف كافياً لازعاجها، فقامت ماريبل وسارت نحو النافذة الصغيرة ووجدت أن المطر قد توقف إلا أن السماء كانت ملبدة بسحب أكسبها القمر جلالاً. وقفزت من الذعر عندما قال

روم وهو واقف خلفها وصوته قريب منها بحيث شعرت أن في استطاعتها لمسه إذا أرادت:

«كان يجب ألا أذكر اسمه وأذكرك به».

ولقربه منها حركت أنفاسه خصلة من شعرها، وشجعه جمالها على تكرار الحركة وضحك عندما رآها ترتبك وتتورد وجنتاها خجلاً. وفي تلك اللحظة رأيا نجماً يهوي إلى الأرض. ولتلفت نظره بعيداً عنها، أشارت إلى النجم وقالت:

«أنظر! هذا نجم يهوي».

فأمرها بحدة قائلاً وقد تحول من مزاح إلى جدية:

«لا تفعلي هذا».

وعندما رأى تغيير تعبير وجهها قال شارحاً:

«يعتقد الغجر أن كل نجم في السماء يمثل رجلاً على الأرض، وأن اختفاء النجم معناه هروب لص.. فإذا أشرنا إليه بأصبعنا فأن الرجل الذي يمثله ذلك النجم يقبض عليه. وقد خرج بعض رجال القبيلة الليلة ولم يعودوا بعد. والعادات كما تعلمين لا تندثر بسهولة. فبالرغم من أننا الآن في مركز يؤهلنا لشراء ما نحتاج إليه من طعام إلا أن البعض يصمم على الحصول على بعض مطالبنا بسرقتها. واقترب منها بحيث كاد فمه أن يلامس خدها وقال:

«لا يرضي الرجل شيء أكثر من التغلب على نزوات المتمردين سواء كان غزالاً شارداً أو امرأة. فكلاهما يضيف لذة إلى المطاردة.»

وشعرت بضعف عام ينتاب جسمها، فإن جاذبيته الطاغية كانت قوية بحيث كان دفاعها الوحيد هو السخرية. فتشبثت بها بنفس الذهن الذي ينتاب الغريق وأرادت أن تتحرر من سحر جاذبيته فقالت:

«وماذا عن صوفي؟ وكيف يثير وجودها تعطشك للاثارة؟ لا تقل لي إن مظهرها المادي، الخارجي يخفي وراءه سحراً خاصاً».

وضحكت بانطلاق على مفارقات شخصية خالتها لكنه لم يشاركها ضحكها بل أجابها باستياء قائلاً:

«إن خالتك سيدة نادرة، فكيف تتعجبين من حب كل رجل في المعسكر لها؟ فهي ساحرة لا مثيل لها، سيدة يسعد كل رجل أن يموت من أجلها».

وتساءلت ماربيل لماذا آلمتها اعترافاته إلى هذا الحد رغم أنها أكدت فقط ما كانت تشك فيه؟ وبينما كانت تجفف دموعاً مفاجئة سمعا طرقاً شديداً على الباب جعل روم يستدير إليه ويفتحه ليجد غجرياً مضطرباً واقفاً يقول:

«البوليس! لقد ألقوا القبض على بعض الناس، لكني هربت منهم أنهم يقتربون من هنا وسيصلون إلى المعسكر في أية دقيقة».

وبسرعة لبس روم سترته وهو يشتم من الغيظ وقد سمع صراخ النساء الذي سبق وصول رجال البوليس.

ودفع الفضول ماربيل إلى الباب لترى ما حدث لكن روم كان قد ركله بقدمه عند خروجه بعد أن وضع معطفاً حول كتفي ماربيل وأعطى تعليماته إلى الغجري الذي حمل إليهما الخبر:

«عندما أنصرف انتظر بضعة ثوان خذ زوجتي واخفها فلن نجازف بعثورهم عليها هنا. فبالرغم من بعدنا عن وارنس، أراهن أن أوصافها قد وزعت على كل الدول المجاورة. أسرع وكن حذراً».

وانصرف قبل أن تحتج ماربيل تاركاً إياها تحملق في الغجري الذي فاق احترامه لقائده خوفه من البوليس. وانتظر ثوان قليلة كما أمره ثم طلب منها أن تتبعه.وسمعت ماربيل أصوات نباح الكلاب

مع صياح الأطفال وصراخ الأمهات الغاضبات وصفير رجال البوليس وثورة الفجر وهرج المعسكر. سمعت ماريبل ذلك كله بينما كانت تخرج من العربة مع حارسها ويختبئان في الأحراش المحيطة بها. ورغم اختفائهما إلا أنهما سمعا صوت روم وهو يهدئ من روع المعسكر حتى أصبح في الامكان تمييز الأصوات المختلفة. وهدأ كذلك رجال الشرطة الذين كانوا يفتشون المعسكر بأضواء كشافاتهم بينما أخذ روم يكلم رئيسهم بأدب ولكن بكبرياء قائلاً له:

«إنني مستعد للاستماع لك إذا تفضلت وشرحت لي سبب تهجمكم علينا».

وابتسمت ماريبل في الظلام عندما أحرج الضابط ورد بعصبية:

«فاجأنا أربعة رجال وهم يسرقون الدجاج وقد قبض رجالي على ثلاثة منهم، أما الرابع فقد هرب ونعتقد أنه اتجه نحو معسكركم».

فقاطعه روم قائلاً:

«لقد انزعج الأطفال والنساء. وحتى الحيوانات حاولت الهرب من حظائرها لمجرد أنك تصورت أن لصاً جرى في اتجاهنا. انظر حولك وقل لي إذا كنت تعتقد أن قبيلتي في حاجة إلى تلك الدجاجات الهزيلة».

وضحكت ماريبل ولكن رفيقها أمسكها وهما يتصوران كيف حاولت النساء الذكيات إقناع الضابط بكلام روم بالكشف عن حليهن الذهبية من أساور وأقراط وعقود لا تستطيع أن تحلم بها زوجة ذلك الضابط في حياتها. وهكذا أقنع أهل المعسكر الضابط بخطئه بأسرع مما كانوا يتوقعون. وعندما جاء رده مليئاً بالاعتذار والشك، استغرقت ماريبل في الضحك حين قال الضابط:

«لقد ضايقنا منذ أشهر غجر رعاع وأردنا أن نخمد نشاطهم، لكن يبدو

أننا تسرعنا بعض الشيء معكم فمن الواضح أنهم لا ينتمون إلى قبيلتكم».

فقال روم بصوت باسم:

«شكراً يا صديقي! عندما أقابل رئيسك سأنقل له إعجابي بحكمتك وهي صفة اعتبرها هامة بالنسبة لشخص في موقع المسؤولية مثلك».

وكما كان متوقعاً، تأثر الضابط ولبى دعوة روم ليشاركه زجاجة الشراب، بينما استقبل رجاله بارتياح حسن ضيافة القبيلة التي اعتبروها من عداد الأصدقاء. ولفترة طويلة ظلت ماريبل قابعة في الظلام في انتظار رحيل الضابط ورجاله. ومضي الوقت تحول انتظارها إلى قلق وكادت تبكي عندما سمعت الضابط وهو يودع الحاضرين ويقود رجاله بعيداً عن المعسكر.وقالت رداً على صوت حارسها عندما رأى روم يظهر لها من الظلام:

«حمداً لله»

«حاولت أن أتخلص منه قبل ذلك لكنه كان مصمماً على البقاء. انتظري!»

لكنها اتجهت نحوه وكادت تتعثر في خطاها فرفعها بين ذراعيه، وحملها الى داخل العربة ووضعها على السرير وخلع حذاءها وأخذ يدلك قدميها بشفقة خشنة ليساعد على سريان الدم في عروقها. وكانت ترتجف بشدة لدرجة أنه تركها لاعداد قهوة ساخنة بالسكر وسقاها إياها من بين أسنانها المصطكة. وانسابت حرارة القهوة كالنار المذابة في عروقها وأعادت الدفء إليها.

وحينما استأنف تدليك قدميها والمرور بأصابعه على آخر آثار قيود كاليا في قدميها سألته والنعاس يغلب عليها:

«ماذا سيحدث للرجال الذين تم القبض عليهم؟»

«سيوضعون في السجن».

«وهل سيتقبلون هذا العقاب كشيء يستحقونه؟»

ولم يعجبها ما بدا عليه من ألم وهو يقول:

«ولماذا يتقبلونه؟ أنهم لا يعتبرون أن سرقة الأشياء الضرورية جريمة. فمثلاً جمع الأخشاب من الغابة يجب أن يكون مباحاً للجميع، وترك المواشي لترعى في أرض الغير يجب ألا تعتبر مخالفة طالما تنمو الحشائش فيها بدون مجهود من المالك! إن الجشع هو الذي يحول الأخذ إلى سرقة. وإذا كان كل الناس أمناء يحبون غيرهم مثل الغجر لما أصبح لدينا خوف من المجاعة أوالتلوث أو الحرب».

ونظرت ماريبل إليه وساءلت بينها وبين نفسها: «هل الحكمة في السكوت أم في الكلام؟» ثم استراحت عندما غابت النظرة الصارمة من عينيه وسمعته قائلاً:

«لا بأس. سيأتي اليوم الذي ستنتهي فيه مدة عقوبتهم وستتقابل معهم ثانية. لكنهم لن يفصحوا للبوليس عن علاقتهم بمعسكرنا. ولذلك تستطيعين أن تطمئني وتنعمي بالأمن والسلام».

وبادلته ابتسامته المشجعة التي وجهها إليها. لكنها في قرارة نفسها لم تكن ترغب في الأمن. أما بالنسبة للسلام فقد تساءلت عما إذا كانت ستعرف ثانية المعنى الحقيقي لتلك الكلمة.

٧ ـ حب ام كراهية؟

أحياناً كان الجنود في عربات الجيش يسرعون بجوار القافلة. وفي أول الأمر كادت ماريبل تموت خوفاً وهي تتصور نفسها وقد سحبها الجنود من العربة وأدخلوها السجن. لكن مخاوفها هدأت تدريجياً وهي تطمئن نفسها بأن سيرجي إيفانوف لا يعرف شيئاً عن علاقتها بالغجر. كان روم معروفاً باختفائه المتكرر المعتاد من المجتمع، ومصادفة اختفائها من وارسو في الوقت نفسه مع اختفاء روم قد يحتاج الى بعض الوقت حتى يصل إلى فهم سيرجي الذي يتصف بالقسوة وليس بالذكاء. وتضايقت كعادتها دائماً عندما تفكر في ذلك الرجل الروسي وبدأت تراودها الشكوك والحيرة من جهة خالتها. رفض روم أن يتكلم عن الأحداث التي أدت إلى قرارها، ولكن كلما ذكر اسم الخالة لاح على جبينه عبوس ظاهر، وبان على فمه الغضب مما يدل على أنه هو الآخر كان قلقاً على صوفي التي لولا مجهوداتها لصالح ابنة اختها لأضطرت أن تشرح الكثير لذلك الروسي ذي العينين النفاذتين.

وبدا على روم كأنه يقرأ أفكارها. لذا أشار إليها أن تجلس بجانبه في المقعد الأمامي الذي يقود منه العربة. وبعد تردد أطاعته وهي تتساءل إذا كان سيصب عليها جام غضبه لخطأ ارتكبته، أم سيسلط عليها مزيداً من جاذبيته، التي تؤثر في أعصابها أكثر من كلماته الصارمة.

وأشار إلى شيء بعيد، وعندما تابعت إشارته بعينيها رأت قصراً

بعيداً وقال لها روم باختصار شارحاً ما رآه:

«هذا هو قصر براتيسلافا الذي يشرف على المدينة التي تحمل اسمه وسنذهب إليها الليلة».

ولم يفته ملاحظة البريق الذي بدا في عينيها، وعلق على ذلك قائلاً:

«بالرغم من أنك لا تجرؤين على مقابلة أهل المدينة أو التحدث إليهم إلا أنك ستشعرين على الأقل بأنك قريبة من المثقفين الذين تتوقين لصحبتهم».

وكانت ماريل قد نسيت محاولاتها اليائسة في إخفاء مشاعرها وراء تظاهرها باحتقار عشيرته. لكن الواضح أنها لم تفلح في ذلك، فقالت:

«إنني لم أقصد شيئاً يا روم».

غير أنه قرر الذهاب، فقال مقاطعاً محاولاتها الاعتذار:

«سنذهب بمفردنا، فإن براتيسلافا هي آخر مدينة نمر عليها قبل أن نعبر الحدود وندخل النمسا. يجب أن نغتنم الفرصة لنتعرّف الأخبار، قد تكون هناك أخبار عن صوفي».

إذاً سيدخلان المدينة خلسة ويعرضان نفسيهما لأعين البوليس الساهرة لأنه لا يستطيع الصبر على جهله بأخبار صوفي! برزت لها كل النقائص التي نسيتها والتي استنتجتها ماريل عن خالتها، وهي أنانيتها وغيرتها واستخفافها بالعلاقات الأسرية. والأكثر من ذلك كله صداقتها الخائنة لسيرجي إيفانوف، ودفعت مشاعرها الدم إلى وجنتيها وارتعدت يداها ومنعت نفسها من توجيه عبارات الاتهام التي أرادت بها أن ترفع الغشاوة عن عيني روم ليرى مساوىء

خالتها، فهي لا تستحقه بل يستحق من هي أفضل منها. لكنها لم تجرؤ على التصريح برأيها، فبالرغم من اضطرابها وغضبها فإنها شعرت بغريزتها أن من يسمعها تقول ذلك سيتهمها بالغيرة.

وكان قلبها يدق عندما اقتربت عربتها من المدينة في ساعة متأخرة من تلك الليلة. أما بقية أفراد القبيلة فكانوا يتجهون نحو الحدود، تاركين وراءهم إشارات وعلامات ليلتقطها روم بعد الانتهاء من مهمته في المدينة ويلحق بالقافلة في محطتها التالية. وكانت هناك نقطة تفتيش عند حدود المدينة، فعندما وصل بثقة وثبات إلى الحاجز الممدود عبرها، طلب الحارس الواقف عليها أن يرى أوراقها. فاستجاب روم وجلس في هدوء وهو يصفر بينما أخذ الحارس الروسي يقلب صفحات البطاقة التي قدمها له روم. ولا بد أن مظهر ماريل الأشعث كان مقنعاً للحارس، فقد كان لونها المسمر من الشمس وتنورتها الزاهية وبلوزتها المفتوحة تضفي عليها شكل الغجريات الأصيلات. أما شعرها الأشقر فكانت تغطيه تماماً بعصابة سوداء. كما خبأت بأهدابها المسبلة عينيها الرماديتين اللتين لا يمكن أن تظهر فيهما جرأة الغجر أما روم المرتدي ملابس رجال الغجر كانت أسنانه البيضاء تلمع في ابتسامة كلها ثقة وجرأة وهو يقول للحارس:

«لا بد يا صديقي أنك رأيت جواز سفر دولياً قبل الآن!»

وقبل أن ينتظر جواباً استطرد يقول وهو يتعمد شغل الرجل بكثرة كلامه:

«أنا وزوجتي من الغجر ويتيح لنا جواز السفر هذا المرور في جميع بلاد أوروبا. ولا شك أن كل دولة لها نظامها الخاص. ففي فرنسا مثلاً يطالبوننا بتسجيل أسمائنا في قسم البوليس كل أربع وعشرين

ساعة. ومع ذلك ستجد هذه الأوراق سليمة. أما إذا كنت تشك في شيء فنحن على استعداد للانتظار حتى ترجع في الأمر إلى رؤسائك».

وشعرت ماريبل أن الدهشة بدت على الحارس لفترة وجيزة ثم قال:

«غجر! لا أفهم لماذا يسمحون لأمثالكما بالتجول في أوروبا! هيا مرا وحذار من تفوهكما بألفاظ بذيئة».

وأشار بيده ليرفع الحارس الحاجز عن طريقهما، واندفع روغ في طريقه في زوبعة من التراب الذي أثارته العربة والحصان.

كانت شوارع المدينة هادئة لذا أحدثت عربتهما وهي تسير عليها دوياً كبيراً. وحتى شاطىء النهر بأوناشه الساكنة المصطفة عليه مما يدل على أهمية هذا المرفأ الذي يصدر عنه يومياً أطنان عديدة من القمح والذرة والشمندر وكلها تنمو في تربة خصبة عند وادي نهر الدانوب. وخاب ظن ماريبل في الدانوب نفسه فلم يكن أزرق بل كان رمادياً بلون التراب. إلاّ أن الشوارع التي اخترقاها كانت جذابة. وعندما رأى روم غبطة ماريبل تمهل قليلاً ليتيح لها فرصة مشاهدة كنيسة من طراز الباروك يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر وتشرف على حديقة تتوسطها نافورة من الحديد.

وكان المنزل الذي سيقضيان فيه ليلتهما يقع في الحي الفقير المزدحم من المدينة. الحوانيت مصطفة على ثلاثة جوانب من ميدان فهمت ماريبل أنه يتحول في النهار الى سوق. وفوق الحوانيت تقع مساكن أصحابها وأسرهم. وقاد روم العربة في شارع صغير ضيق يؤدي إلى ساحة واقعة خلف الحوانيت. ومن الساحة يصعد الدرج إلى المنازل. ورأيا رجلاً طويلاً يسرع نحوهما من أحد المنازل ويحييهما

بلغة الغجر التي رد عليه روم بمثلها. ونظر الرجل الذي قدمه روم باسم جان بيلسكي إلى ماريبل وقال:

«إذاً لم تكذب الاشاعات! فعلاً تزوج صديقي القديم».

وابتسم الرجل عندما أرخت ماريبل أهدابها من الخجل

«لقد انتظرنا طويلاً هذه البشرى يا روم. إلا أن حسن اختيارك كان يستحق الانتظار. هيا نشرب نخب الزواج».

وتقدمهما إلى مسكنه الذي بدا لها لأول وهلة كأنه يعج بالأطفال. ولكن بكلمة منه تركوا لعبهم، وبعد أن سمح لهم بتحية الزائرين انصرفوا بهدوء إلى فراشهم. وعندما صبت آنا، زوجة جان الجميلة ذات العينين الحزينتين، الشراب في الكؤوس دس جان عملة ذهبية في يد روم وشرب نخبه قائلاً:

«هذا مبلغ بسيط أقدمه لك، لكني أدعو الله أن يمنحكما الكثير».

وأضافت الزوجة إلى كلماته عبارة بلغة الغجر المتعثرة كما لو كانت تتكلم لغة غريبة عنها. وسرعان ما ذاب خجل ماريبل بفعل الشراب والجو العائلي وترحيب الزوجين لها، وانساب الحديث العذب بينهم ليضيف الى لذة الطعام بأصنافه الشهية جواً حياً.

وكانت لمناظر المدينة فعل السحر في ماريبل، جذبها منظر الصنابير، والمياه التي تجري في المواسير، وصوت الصحون وهي ترتطم بحافة الحوض، وفهمت آنا مشاعرها الفطرية التي جعلتها تعرض استعدادها لمساعدتها في غسل الصحون.

«طبعاً أرحب بمساعدتك. فلنترك الرجلين يستعيدان ذكرياتهما بينما ننعم نحن بالغسيل والكلام ما شئنا».

وأغلقت آنا باب المطبخ الصغير حتى لا يفسد صوت غسيل

الصحون حديث الرجلين وحتى لا يسمعها أحد.

وكانت نبرة صوت آنا يائسة عندما سألت ماريبل أثناء الحديث قائلة:

«أرجو أن تفهمي تلهفي، فإن غبطتك الواضحة بما حولك يشجعني على سؤالك، هل أنت سعيدة لأنك أصبحت غجرية رحالة، عليها أن تقضي بقية حياتها في الترحال المستمر عبر أوروبا في صحبة أناس، بالرغم من طيبتهم، لا يحترمون الأغراب ولا يتعاطفون معهم؟»

وعندما أبدت ماريبل دهشتها لتدخلها في شؤونها الخاصة قالت:

«ما كنت أسأل لو لم أكن أنا أيضاً أجنبية، حاولت في أول زواجنا أن أكيف نفسي لحياة أهل جان لكني فشلت. فقد كرهتها كلها بشدة، وحتى بالرغم من حبي الشديد لجان. فعندما اكتشفت أنني حامل في طفلنا الأول تركته للعودة إلى والديّ، هنا حيث نشأت وسعدت بحياتي، حتى أقنعني جان بأن مكان إقامتنا ليس مهماً طالما نحن معاً».

ووضعت الصحن الذي ظلت تمسحه في غضبها حتى لمع، وحاولت أن تغالب الدموع وهي تقول:

«أكره نفسي أحياناً لما فعلته له. تبعني إلى هنا لكنه ظل معي بجسده فقط أما روحه فكانت تحوم في أوروبا مع قبيلته. هل لاحظت السعادة التي لاحت على وجهه عندما رحب بروم؟ فهو عادة ليس بالانشراح الذي غمره الليلة. ماذا ستفعلين يا ماريبل؟ هل حبك لروم يفوق حبي لجان؟ وهل ستتنازلين طواعية عن أسلوب حياتك وعقائدك وسعادتك إذا كان في ذلك أملك الوحيد في البقاء بجانبه؟»

وبسرعة جففت ماريبل يديها ومدتها لتهدئة الفتاة المضطربة التي أثارتها أسئلتها. غير أن ماريبل لم تحاول الرد على هذه الأسئلة لأنها شعرت أن آنا تدرك أجوبتها. ولكن عندما تكلمت لتهدئ، من روعها ظهرت الجدية في عينيها الرماديتين وهي تدرك لفرط دهشتها أنها تواجه الحقيقة التي حاولت أن تتحاشاها حتى الآن. كانت تؤمن بكل خلجة من نفسها، وعن إيمان راسخ، بأنها إذا وضعت في نفس الموقف لتنازلت عن كل شيء، وتبعت روم إلى آخر العالم.

وكان أثر الصدمة ما زال بادياً على وجهها الشاحب عندما انضمت إلى مجلس الرجلين. وحين دخلت ماريبل الغرفة لاحظ روم على وجهها علامات القلق. وفي الحال وقف وقطع حبل حديث صديقه بقوله:

«إن زوجتي متعبة، لذا أرجو أن تسمحا لنا بالاعتكاف في غرفتنا، وفي الصباح سأكون قد تذكرت الكثير من أنباء أقاربك وأصدقائك».

فدق جان على جبينه وقال:

«كم أنا عديم التفكير! إنك تعرف مدى لهفتي على شؤون أسرتي وقبيلتي. كان يجب عليك يا روم أن تنبهني إلى واجبي كمضيف لكما».

والتفت إلى ماريبل واستطرد يقول:

«أرجو المعذرة يا عزيزتي فإنك تبدين فعلاً متعبة. إن غرفة النوم التي نخصصها لكما صغيرة لكنها مريحة».

وكانت الغرفة فعلاً صغيرة جعلت ماريبل تصيح مندهشة وهي تفتح الباب بصعوبة بسبب السرير الكبير الذي يملأ الغرفة كلها تقريباً ولاحت ابتسامة على وجه روم عندما رأى الفرحة بادية على وجه

ماربيل وهي تنظر إليه باستغراب. وسرعان ما حولت نظرها عن وجهه وتسلقت السرير ذا المراتب الهشة المحشوة بالريش بكل الثبات الذي تستطيع السيطرة عليه. وعندما أغلق روم الباب وانفجر ضاحكاً همست قائلة:

«أخفض صوتك. ستقلق الأطفال في نومهم».

وحاول أن يسيطر على ضحكه قائلاً:

«ليتك ترين تعبير وجهك. فشكلك مثل العانس الغاضبة التي تواجه، لأول مرة في حياتها، فكرة السماح لرجل بمقاسمتها فراشها. إن مساحة العربة أقل من مساحة هذه الغرفة، إذاً لماذا هذا الخجل والتدلل فجأة؟»

وكان يعرف تماماً أن سريرها في العربة يختلف تماماً عن السرير الوثير الذي سيقتسمانه، والذي مهما حاول فيه النائمان أن يظلا بعيدين عن بعضهما، فإن ليونته سرعان ما تجعلهما يتدحرجان ويستقران معاً في وسطه.

واستاءت لمزاحه إلا أن ردها جاء خالياً من مظاهر الهيبة والكبرياء. وحاولت أن تظل جالسة عندما ألقى بنفسه متمدداً على السرير، لكنها هبت بغضب من جلستها وجثت على ركبتيها وحلقت فيه قائلة:

«يجب أن تبحث لنفسك عن مكان آخر تنام فيه فأنت لا تنوي طبعاً أن تنام هنا»

«ماذا؟ وأترك أصدقائي يظنون أن هنالك خلافاً بيننا»

وابتسم بدهاء، وقال مؤنباً إياها:

«كلا يا حبيبتي، فمهما تضايقنا من قربنا من بعضنا يجب علينا أن نتحمله بروح طيبة فلا أحب أن نبدو غير راضيين عن ضيافة أصدقائنا».

وكان يرقبها وعيناه نصف مغمضتين وفمه جاد. ومع ذلك شعرت أنه يتلذذ من إغاظتها ويحاول إخفاء ذلك. وانتابها الخوف عندما أطفأ النور بحركة سريعة وجذبها إلى جانبه. وأخذت يداه تداعبانها محاولاً تهدئتها، لكن عضلاتها ظلت متوترة فهمس قائلاً:

«من الذي سيعلم أننا استمتعنا ولو ليلة واحدة بحقنا في الظروف التي فرضت علينا؟»

وسرعان ما أسكت ردها بحركة منه سلبت ماربيل أي تفكير في المقاومة ، ولم تنطق بكلمة عندما ضمها إليه بحنان، وجعلها تشعر بأنها في سجن جميل مبطن بالريش الناعم نعومة خلجات قلبها.

ثم نظر إليها متعجباً من هدوئها، وحاول أن يفهم غموض رد فعلها. ولوهلة قصيرة قاومت ماربيل خجلها فلم تكن قد تخلصت بعد من التحفظ الذي ورثته عن أبيها الانكليزي، لكنها بتنهيدة مدت يديها وجذبت رأسه إليها، وفجأة شعرت من أنفاسه مدى الدهشة التي انتابته. إلا أنها ابتسمت في سرها. وبعد فترة قصيرة من السكون ابتعد عنها وبحركة رشيقة نهض من السرير، ووقف بجواره ينظر إليها في الظلام ويقول:

«آسف يا ماربيل، جرفني المزاح وتغلّب عليّ ولن يحدث ذلك مرة أخرى».

وكان هذا الاعتذار الجاف مثل السكين الذي يطعن الحب الوليد، الذي شعرت به نحوه لكنه لم يفلح في إخماد نار الندم التي اشتعلت في ثوان، ثم خمدت تاركة حواسها هامدة. ولحسن حظها أنها لم تضيء النور، مجنبة نفسها آلام رؤية وقع الافصاح عن مشاعرها على وجه روم، خاصة وأنها كانت تسخر من مشاعره من قبل. وتعجبت كيف أن السخرية تؤلم أكثر من الصد. وقالت لنفسها إن كبرياءها هي التي

تثير لها هذه المشاعر المتضاربة.

« ماريبل؟»

وارتعدت من الصوت المشوب بالخجل. ثم ضغطت على مشاعرها لتضحك وتقول:

«أنا التي يجب أن تعتذر يا روم. فإن الاغراء بمجاراتك في تمثيليتك كان أقوى مني. مرة قارنت بيني وبين فتيات قبيلتك. ولم تكن المقارنة في صالحي. فلا تلومني لأنني حاولت أن أدافع عن سمعتي عندما سنحت لي الفرصة».

وفي فترة السكون التي تلت كلامها شعرت بحدة الغضب التي لا يمكن أن يضاهيها غير لطمة السوط على الفم. ولأول مرة في حياتها احتمت وراء درعها الحقيقي وهو جنسها. إذ لا يستطيع أن يؤذيها جسمانياً إلا أنه لن ينسى أبداً كلامها. وسوف يظل يفكر كما فكر في آثار الجروح التي أحدثتها قسوة كاليا عليها. حتى أنه الآن وبعد أن التأمت آثار الجروح يستطيع أن يتلمس مكانها.

وشعرت ببعض الراحة لأنها على الأقل حفظت كرامتها. حتى ولو كان ثمن ذلك احتقاراً ملموساً امتد عبر الهوة التي تفصل بينهما. لن تكون هناك فترات أخرى من الحنان الذي يصل إلى حد التعذيب. لن تكون هناك نظرات سريعة متبادلة تنتزع قلبها من بين ضلوعها. فمخالب الأسد تنهش حتى ولو كانت مدهونة بالعسل. أما الجروح التي تحدث من الغضب فيكون تلافيها أسهل من الاهانات لأنها تجيء مستترة بالرقة. وتحرك روم نحو الباب وحبست ماريبل أنفاسها متوقعة منه لسعة وداع. لكنه اختفى بدون كلمة تاركاً لها الفرصة لتبكي بمرارة وحدها.

٨ ـ رصاص ودماء

تحت بيت جان مقهى استعمله مصدراً لقوته هو وزوجته. وكانت آنا تعدّ فيه الطعام ويقوم جان على خدمة الزبائن. وفي اليوم التالي عندما اقترح جان لاصطحاب روم لمعرفة الأخبار في المدينة. تدخلت آنا وذكرته بأن أصغر اولادها يحتاج لرعاية أثناء عملها. واحتار جان ونظر إلى الوجه الصغير الملوث بالمربى وقال:

«نسيت أمر بيشا الصغيرة».

واقترح روم قائلاً:

«سترعى ماريبل الطفلة. فمن الخطر عليها أن تصحبني في الشوارع نهاراً».

وعندما اتجهت الأنظار نحو ماريبل. توردت وجنتاها لكنها هزت رأسها موافقة على الفكرة. فهي ترحب بأي اقتراح يبعدها من روم. ودلت نظرته على أنه قرأ أفكارها فألقى عليها تحية مقتضبة عبر الغرفة وخرج مع صديقه.

وارتاحت ماريبل عندما تركها روم وحيدة مع بيشا الصغيرة. بينما انشغلت آنا في خدمة زبائن المقهى الذين يطلبون القهوة والكعك حتى يحضر رواد الغذاء من المكاتب والحوانيت المجاورة ويشغلوا جميع المقاعد ويملأوا الغرفة بحديثهم المرح. وتاقت ماريبل إلى الانضمام إليهم. والاستماع لحديث الطلبة أو لحوار رجال الأعمال الجالسين حول المائدة وكأنهم يتكلمون عن حدث هام. لكنها أخذت تحوم في الخارج وهي لا تجرؤ على الظهور أمام أحد. وازدادت

الطفلة عصبية كلما طال بعدها عن أمها. فحملتها ماريبل إلى الفناء لتغريها على اللعب؛ ووجدت كرة انشغلتا بها لمدة نصف ساعة وكانت أنا تطل برأسها من النافذة من آن لآخر لتشترك في مرح الطفلة وتطمئنها بوجودها. وحدث أن شتتت الأم انتباه ماريبل فلم تلحظ أن الطفلة أخذت تلعب بالكرة وهي تتبعها نحو المقهى المليء بالرواد.

وكانت كل الأبواب مفتوحة على الفناء. فعندما لاحظت غياب الطفلة أخذت تبحث عنها.. لمحتها وهي تقف على عتبة باب المقهى، فنادتها قائلة:

«ارجعي يا عزيزتي بيشا».

لكن الطفلة ترددت وبابتسامة ماكرة دفعت بالكرة وأدخلتها بين رواد المقهى، فضحكت ماريبل وأسرعت نحوها وهي تقول:

«أيتها الشيطانة!»

وبدون تفكير حملت الطفلة وأسرعت بالتقاط الكرة. إلا أنها تنبهت إلى غلطتها بعد فوات الأوان. وبعد أن تحولت جميع الأنظار إلى وجهها المصطبغ بحمرة الخجل، وإلى الطفلة وهي تحاول التخلص من ذراعيها. وأخذت تتراجع وهي تحمل الطفلة بينما تركت فكرة استعادة الكرة. وقام رجل من مقعده المجاور للكرة فالتقطها واقترب من ماريبل والطفلة. وعندما سقطت أشعة الشمس على أزرار زيه العسكري وعلى جلد حذائه الطويل، شعرت بالخوف والاضطراب فقد تعرفت على الزي العسكري الذي رأته لأول مرة على سيرجي إيفانوف. وقدم الكرة قائلاً وهو يصك حذاء معاً دون أن ينظر إلى وجهها:

«كرتك أيتها الرفيقة».

تمتمت بكلمات الشكر وفرت هاربة بمجرد أن أخذتها. واستدار ليجلس عندما جذبت بيشا من فرحتها رباط رأس ماريبل تاركة شعرها الأشقر يتهدل على كتفيها. ورفع الضابط رأسه ودقق فيها النظر، ولكن قبل أن يستجوبها رفعت ماريبل أطراف ثوبها وهربت إلى المنزل ووقفت ترتعد وراء الباب متوقعة أن تسمع وقع أقدام تتبعها...

وعندما عاد روم و جان أكلت معهما واستمعت إلى حديثهما وفكرت هل تخبرهما بالحادث؟ وبأنها عصت تعليمات روم حين أمرها بألا تظهر للناس. ولم تشجعها الجدية البادية على وجهه على الاعتراف. وبعد فترة من الصراع قررت أن تلتزم الصمت. وجاء صوت جان مبدداً لتفكيرها:

«لدينا أخبار سارة يا ماريبل. ذهبنا إلى مكتب البريد لتسلم بريد الفجر، ووجدنا عدداً كبيراً من الخطابات باسم روم. وبالنظر إلى خاتم البريد عرفنا أن معظمه مرت عليه شهور وهو في المكتب».

وتوقف برهة متوقعاً أن يكمل روم القصة، ولكن عندما وجده مستمراً في الأكل لم يأبه بل تابع كلامه قائلاً:

«ثم ذهبنا إلى بعض مراكز الاتصال وقيل لنا إن شخصاً ما يحاول الاتصال بروم تليفونياً لمدة أسابيع، لذا اتفقنا أن يتكلم عصر اليوم ونحن متأكدون أنها أخبار صوفي».

وتنهدت ماريبل وقالت:

«هذه فعلاً أخبار سارة ولا بد أنك تتوق يا روم لتلقي هذه المكالمة».

وأرخت أهدابها وانتظرت رده وتضايقت من سكوته. وحتى جان

لاحظ أنه لم يوجه إليها إلا عبارات مقتضبة منذ الليلة السابقة. كما لاحظت هي أن الجو بينهما أصبح متوتراً بحيث تمنت لو كلمها ولو بألفاظ اللوم، وانتفضت عندما سمعت إبعاد مقعده عن المائدة لكنه تجاهل سؤالها وأشار للساعة وقال لجان:

«ستأتي المكالمة الساعة الواحدة والنصف. والساعة الآن الواحدة، يجب أن أذهب فشكراً يا صديقي على حسن ضيافتك. وللأسف يجب أن أرحل بمجرد مجيء المكالمة وأرجو ألا تطول مدة فراقنا، وأن تقنع آنا بالانضمام إلى قبائلنا ولو لفترة قصيرة حتى تستطيع أن تجدد صداقتك وتسعد أقاربك بحضورك».

وأخفى جان اشتياقه إلى هذه الزيارة فقال:

«تعلم يا صديقي أنني اعتدت على حياة المنازل فلا أستسيغ فكرة كسر طبقة الثلج من المياه قبل أن أغتسل بها، كما لا تتحمل عظامي التي اعتادت الفراش الوثير النوم على الأرض بعد نومي على المراتب المحشوة بالريش. واستمر روم في محاولاته مع اهتمامه برد صديقه:

«هل أفهم أنك راض عن حياتك؟»

وحبست ماريبل أنفاسها لتستمع للرد الذي تتوق آنا إلى سماعه لكنه قال:

«لا الفقر ولا الثراء يتركان الانسان سعيداً. أما تحت سقف هذا البيت فتوجد السعادة التي أصبحت من نصيبي».

وكانت إجابته حلاً وسطاً لموقفه، إلا أن روم صافحه وتبادلا نظرة تحمل الكثير في طياتها وافترقا دون تعليق.

وظل جان في المقهى فيما عاد روم إلى مكان الاجتماع انتظاراً لمكالمة صوفي. وقررت آنا أن تستريح في المنزل مع ماريبل،

وكانتا تتبادلان الحديث وتتناولان القهوة عندما سمعتا أصواتاً آتية من المقهى، فانتفضت آنا واقفة ونظرت لماريبل بينما سمعتا صوت جان وكأنه ينذرها:

«نعم أيها الرفيق، كان لدينا غريبان حضرا ليلة أمس يستجديان طعاماً فعطفت عليهما زوجتي وقدمت لهما وجبة وسريراً مقابل قيام الزوجة برعاية طفلتنا بينما عمل الزوج في المطبخ، وقد رحلا من ساعة وقالا إنهما سيعودان إلى قبيلتهما وأجهل وجهتهما».

وعندما وجه إليه مستجوبوه سؤالاً رد جان بصوت أكثر ارتفاعاً:

«سيدة انكليزية؟ لابد أنك مخطئ. هل رأيتها هنا في المقهى؟ ألم تكن سمراء؟»

فارتاعت ماريبل ورفعت يدها تلمس بها العصابة التي تغطي شعرها الأشقر. كم هي غبية لاخفاء مقابلتها للضابط الروسي! فلو ذكرت الحادث لأستعد جان بردود مقنعة! ماذا لو دخل المقهى وأثبت كذب جان وطرأت الفكرة نفسها لآنا فأمسكت ماريبل وناشدتها إيجاد حل للمأزق.

حينئذ، وكأن الله استجاب لدعائها، سمعتا روم يقود العربة داخل الفناء فلحقت به ماريبل وقالت وهي تلهث:

«جنود... بالمقهى»

وبسرعة انتزعها من الأرض وأجلسها بجانبه وضرب الحصان بالسوط، وانطلقا نحو حدود المدينة، ولم يتسع الوقت لتوديع آنا وهي واقفة ترقب ما يحدث من وراء الستائر، وعندما التفتت ماريبل إلى الوراء، رأت جنديين يظهران في الفناء، وسمعت صيحة تلتها صفارة عندما رأى الجنديان العربة وهي تسرع مبتعدة عن المنزل، لكنها لم

تشعر بالخوف لأنهما قد ابتعدا بمسافة كافية ليتفاديا إيقاع الشك بأصدقائهما.

وكان الكلام مستحيلاً بينهما بسبب أصوات حوافر الحصان وسرعة العجلات، لذا تشبثت بالعربة متحملة ميلها ومطبات الطريق، حتى أن أسنانها ضغطت على لسانها فأدمته.

وعندما جاءت الطلقة الأولى كانا قريبين من الأشجار. فشعرت بخوف سمّرها في مكانها بدون حركة، حتى مد روم ذراعه وجذبها ضاحكاً:

«اثبتي ولا تخافي، كدنا نصل إلى بر الأمان».

وعندما مرت رصاصة أخرى بجوار رأسه جزعت ماريبل. الا ان روم قاد الحصان بأقصى سرعة محاولاً الدخول إلى الأشجار ليحتمي فيها. وتنفست ماريبل الصعداء، عندما دخلا بين الأشجار وأصبحا في أمان. وظل يتوغل في الغابة إلا أن كثافة الأعشاب جعلت التقدم مستحيلاً، لذا قفز من العربة وأشار إليها أن تتبعه، ثم ربت على الحصان وتركه يعود من حيث أتى.

أمسك روم بذراع ماريبل وأخذا في العدو، وسمعا أصداء أصوات بين الأشجار عرفا منها أن هناك من يتبعهما عن قرب، ولمدة ساعات حاولا اختراق الأشجار الكثيفة فكانا يتعثران و يتعرضان لوخز الأشواك التي تشبه الأفاعي في لدغها. وأخيراً شعرا أن المطاردين قد ابتعدوا عنهما. وكانت دراية روم بالغابة وحدة نظره، وحكمته خير عون لها. وفجأة توقف روم عن جريه ونصح ماريبل بالراحة، فأطاعته وهي مطمئنة إلى أنهما في أمان.

ثم ارتمت على الأرض المغطاة بالحشائش وراحت تدلك وجنتيها

بالأوراق الندية، شعرت بدقات قلبها وهو يلامس الأرض، وعندما هدأ الصوت واسترخت عضلاتها قالت:

«هذه غلطتي يا روم، شعرت وأنا في المقهى هذا الصباح أنني أثرت شك أحد الضباط لكنه ترك المكان دون أن يقول شيئاً ولم أظن أن الحادث بالأهمية التي تجعلني أذكرها لأحد».

فصوب نظراته إلى وجهها وقال:

«لم تظني أن الحادث هام؟»

وجاءت كلماته بطيئة معبّرة عن غضبه ودهشته، فارتبكت وتوسلت اليه بألاّ يقسو عليها. وتوقعت أن يثور عليها، لكنه من فرط تعبه تنهد وترك جسده يستريح قائلاً:

«بعد بضعة أميال سنكون في أمان، هذه الغابة تقع عبر الحدود، دخلناها في تشيكوسلوفاكيا وسنتركها في النمسا».

ثم استدار ليواجهها واستطرد يقول:

«بمجرد وصولنا إلى فينا سأعيدك إلى خالتك الموجودة هناك منذ أسابيع بانتظار أخبارك».

فرددت كلماته بدهشة وقالت:

«خالتي في فينا! لكن... كيف؟... ولماذا؟»

«كيف... بالطائرة... ولماذا... لأنه بمجرد معرفة سيرجي إيفانوف بتحركاتها لم يعد لها أمان في وارسو».

«أتعني أنها اضطرت إلى ترك بيتها وعملها وأصدقائها بسبب تدبيرها لفراري؟»

قال:

«لقد ظلمت خالتك كما ظلمها الكثيرون».

وأثارت الدهشة التي بدت عليها غضبه وحفزته على الاستطراد في كلامه:

«إنها أكبر مني بقليل، ولكنها لم تكن قد تعدت مرحلة الطفولة، بعد عندما اندمجت في منظمة، هيأت الهرب إلى الحرية أمام آلاف اللاجئين. وجاءتها فرصة الهرب مراراً لكنها فضلت البقاء حيث اعتقدت أن الناس في حاجة إليها، أي في وارسو، وخالتك تناهض العنف. واستطاعت بالصداقة القائمة بينها وبين سيرجي إيفانوف وأمثاله، ادخال تعديلات خففت العبء عن كاهل الذين تتعاطف معهم، وهم الطبقة العاملة الذين أصبحت حياتهم جرداء، لا تختلف عن حياة الحيوانات».

فخجلت وسألته:

«هل فعلت خالتي هذا!»

فرد عليها وقد أثارت غضبه:

«وأكثر من ذلك. صوفي ساعدت على قيام ثورة بيضاء، جعلت بعض الذين كانوا يفكرون في الهرب يعدلون عنه، ويبقون لمعاونتها في النضال من أجل ابقاء العادات القديمة استعداداً ليوم التحرر الحقيقي».

واتضح لها كل شيء، فقالت:

«وأنت الذي عاونتها! أنت وقبيلتك كنتم طريق الهرب الذي ذكرته. الآن فهمت سبب ولاء عشيرتك لخالتي، كما فهمت نتيجة عنادي! لقد أفسدت كل ما عملته من أجل تحقيق رسالتها».

وودت ماريبل لو دفنت نفسها من الخجل. ولم تفلح نظرته القاسية في التخفيف عنها، استمر يمعن في إيلامها غير آبه بعينيها

المعذبتين.

«أليست صدفة غريبة أن سبيل الهروب الذي وجد لفرار والديك أساساً قد حطمته ابنتهما!»

ولم يرحمها روم ولم يكتف بتعذيبها، فشعرت أن لا شيء يمحو الضرر الذي ألحقته بخالتها، وحتى اعتذارها وما يحمله من ندم لن يكون غير الأمعان في آلامها.

ولم يلحظ أنه هب واقفاً ورفع رأسه وكل حواسه منتبهة إلى رائحة الدخان وأصوات الفرقعة في العشب والسحب الزرقاء التي التفت حولها وقال:

«حريق! إنهم مصممون على شيّنا أحياء. وجذبها وأوقفها وهو يبعدها عن الخطر المحيط بها وأخذا يجريان عبر الأشجار مبتعدين عن ألسنة اللهب».

وخرجت أفواج من الحيوانات والطيور الخائفة من وسط الحشائش وهي تصرخ وتطير بتثاقل، مثلما تطير عندما تسمع الرعد الذي يسبق العاصفة. وكانت النيران تنتشر بسرعة، وأخذت تسبق خطاها في أماكن لم يتوقعاها. وصاح روم وهو يجذبها عبر الغابة التي تحولت بسرعة إلى فخ محكم:

«يجب أن نتبع الحيوانات فهي متجهة نحو المياه، يوجد نهر هنا ونرجو الله أن نصل إليه في الوقت المناسب».

وكانت ماريبل متعبة تحاول ملاحقة خطواته السريعة. وهي تسمع النار تقترب منها وتلتهم كل شيء في طريقها وكانت الحرارة عنيفة، والهواء خانقاً يحمل رائحة الاحتراق. وفجأة تعثرت ماريبل ووقعت على الأرض، لكن سرعان ما جذبها روم ثانية لتقف على

قدميها وأخذ يتهزها ويدفعها للأمام فهمست قائلة:

«إنني لا أستطيع يا روم... استمر في طريقك بدوني».

واحتجت عندما رفعها من الأرض بين ذراعيه واستعطفته قائلة:

«كلا...»

وانسابت دموعها على خديها وحاولت أن ترغم روم على تركها وناشدته أن ينقذ نفسه دون تحمل عبئها. إلا أن الدخان غمر رئتها فلم يخرج من حلقها الجاف وشفتيها المشققتين عندما داهمها ظلام الاغماء.

وأفاقت على الماء الذي كان روم ينثره على وجهها، وعلى صوته القلق وهو ينساب إلى هدوء غيبوبتها كان ملحاً وقلقاً حتى أنها فتحت عينيها رغم إرادتها لتتأكد من سبب غياب غضبه المعتاد، ورأت في الوجه المنحني عليها علامات القلق. وارتاحت عيناه عندما نادت اسمه، وهمست قائلة:

«هل نجونا؟ وهل خمدت النيران؟»

«لا تقلقي يا عزيزتي عثرنا على النهر وأرجو أن تنطفىء النار عندما تصل إلى الشاطىء. لكننا لا نجرؤ على العبور خوفاً من أن يحمل الهواء شرراً إلى مسافة تسمح بانتشار النار. يجب العثور على مكان في النهر يغطينا بالماء وننتظر فيه حتى نتأكد من سلامتنا قبل المجازفة بخوض الجزء الأخير من رحلتنا».

وفكرت: هل يوجد شيء آخر مسؤول عن المشاعر المتضاربة التي تتنازع روم وتبدو على فمه الخالي من الغضب؟ لذا بدت عليها الدهشة وهي تنظر إليه.

«وماذا عن الجنود؟ هل سيعطيهم تأخرنا فرصة اللحاق بنا؟»

عاد العبوس إلى ملامحه وهز رأسه وقال:

«كان قرارنا حكيماً، فلن يصدقوا أننا مازلنا أحياء ولابد أنهم يحتفلون الآن بنجاح عمليتهم».

ومما أكد خطورة موقفهما وقوع جذع شجرة بالقرب منهما فجذبها روم وقال:

«تعالي، لقد تمادينا في التفاؤل بنجاحنا، وأن الآن وقت السباحة»

وأمسكها وقادها فوق الصخور حتى وصلا إلى بركة في أعمق جزء بالنهر. وعندما غاصا فيها، تصاعدت الفقاقيع ووصلت المياه إلى رقبتيها. وفجأة اصطبغت المياه بالاحمرار حينما اشتعلت النيران في الصف الأول من الأشجار على الضفة المقابلة، واندلع اللهب بلونه الأصفر والبرتقالي.

أخذا يرقبان النار والماء حولها كالدم المراق ورأيا الطبيعة تلفها بألسنة النار في ثوان: فبالسرعة التي يوقد بها عود الثقاب انهارت عمالقة الغابة وأصبحت عصياً قصيرة من الرماد. أما وهج الحريق فأخذ يقترب منها ويحاول التهامها. وبخوف شديد راقبا اللهب عن بعد وهو يلتهم الأشجار على الشاطىء الآخر. ودخل الدخان في أعينها وحلقيها واضطرا أن يغوصا في الماء حتى وصل فمها إلى سطحها.

وعندما هدأت حدة الحريق كانت ماريبل قد استنفدت قواها، ولم يبق لديها إلا قدر بسيط من قوة الارادة لتطيع بها روم عندما أمرها قائلاً:

«هيا بنا. فلم تصل النار للضفة الأخرى بعد».

ورغم معاونته لها، سحبت قدميها بصعوبة. فملابسها المبتلة كانت تعوق حركتها، وعبرت إلى ضفة النهر الأخرى. وعندما وصلا إلى هناك ارتمت على الأرض طلباً للراحة. لكن روم لم يسمح لها بذلك، فركع

بجوارها وشجعها على الاستمرار في السير واضعاً أصبعه تحت ذقنها وهو يقول:

«كنت شجاعة يا عزيزتي، لكنني مضطر أن أطلب منك بذل جهد أخير، فعلى بعد أميال قليلة تقع حدود النمسا. والحراسة الروسية تنشط على الحدود، لكني متأكد أننا سنتفاداها إذا بقينا في الغابة. إلا أنه من الخطر أن تتأخر هنا، أرجوك محاولة المشي، لفترة قصيرة».

كان صوته من النوع الآمر. فرغم وجود رغبة تدفعه إلى الوصول إليها، ورغبة يتمنى بها التخلص منها لأنها سببت له المشاكل، إلا أن ابتسامته شلت إرادتها ورفعتها إلى قدميها، واعترتها نوبة من المشاعر الطاغية عندما دس يدها في يده. فبمعجزة اختفت صرامته، وشعرت بالندم على الاساءة إليه، وحمدت الله أن النار قد طهّرت الحقد والكراهية في نفسه.

وأخذا يمشيان بين الحشائش الطويلة التي تخفي في طياتها كتيبة كاملة. وعثرا على ممر دكته الأقدام بحيث فتحت طريقاً في الاتجاه الذي يريدانه، لكنهما لم يجرؤا على المشي فيه خوفاً من مقابلة دورية الاستكشاف عند أحد المنحنيات. وتبعته وهي تضع قدمها في موقع قدمه وتتعثر على الجذور المخبأة في الأرض خائفة من أصوات الحيوانات وحركاتها المفاجئة، انها تجمدت في مكانها عندما وصلت إلى الأعشاب التي تصل إلى كتفيها، وأخذت تنصت لصوت تكسر جذوع الأشجار، وزقزقة بعض الطيور وهي عادة تنذر بالخطر.

ولابد أنهما قطعا أميالا كثيرة عندما طلب روم منها التوقف لاطمئنانه للمكان الذي كانا فيه. وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله ويضفي على الأشجار منظراً رهيباً. ارتعدت ماريبل وهي تتصور

أن أعيناً خفية تنظر إليها، ثم اقتربت من روم الذي كان ينصت لصوت أية حركة حولها. ولما اطمأن لعدم وجود شيء، جلس على الأرض وربت على مكان بجواره لتجلس عليه وقال:

«اجلسي هنا واستريحي فإن أسلاك الحدود على بعد ياردات قليلة من هنا، ولكن بما أنه مكشوف من الناحيتين بأرض فضاء فيجب أن ننتظر حتى حلول الليل قبل أن نجازف بالعبور».

وقال لها بهدوء رداً على دهشتها:

« الروس يفتشون هذه المنطقة ليل نهار. ولابد من مجازفتنا بالعبور، فهذه هي الطريقة الوحيدة أمامنا».

وفجأة أخذت أسنانها تصطك، فجذبها للأرض وأحاط كتفيها بذراعه وأخذ يطمئنها. وفي أول الأمر لم تع كلماته، إلا أن صوته كان رقيقاً، كما كانت ذراعه مريحة وسرعان ما شعرت بالدفء والهدوء.

وشجعها اهتمامه فسألته:

«هل تظن يا روم أن آنا و جان سيكونان سعيدين في يوم من الأيام؟»

وشعرت بعلامات ضيقه وعرفت أنه كان قلقاً على صديقه وأن جوابه سيكون دليلاً على رأيه في زواج الغجري بأجنبية، وهو رأي له في نظرها أهمية كبيرة، فإنها لم تتصور كيف تستطيع خالتها، ربيبة المدينة أن تكيف نفسها لتلائم أي زوج حتى ولو كان مثل روم. فإن استعداده لتغيير أسلوب حياته يدل على مدى الحب الذي سيضفيه على زوجته. وبعد فترة قال:

«رأيي أن على الزوجة أن تتكيف مع زوجها، لكني الآن لست واثقاً من هذا».

وعندما أبدت دهشتها، قال:

«إن تضحية جان ترجح كفة أنا والأطفال، فقد يتنازل برضاه عن الراحة التي يشعر بها في منزل مستقر ويتنازل عن المال، ولكن حياة الغجر الحرة وصحبة أهله لا تعوضه عن حرمانه من أسرته أو حنان زوجته، فإن الرجل يهتم بذلك التفاهم وتلك الروابط التي تجمع بين الرجل والمرأة بحيث يتعاونان أمام الصعاب. وهناك رجال لا يصلون إلى هذا الارتباط ومنهم من يستعدون لقضاء حياتهم وحيدين بدلاً من قبول شيء لايرتضونه. ولكن إذا عثر رجل على شريكة ممتازة لحياته مثل جان، فلا شيء يفرقه عن التي اختارها لتكون والدة لأبنائه».

وكانت ماريبل تتوقع رداً أميناً، لأن روم يتصف بالأمانة، لكن الجدية التي تكلم بها أحيت الأمل في نفسها. وشعرت بغيرة وحقد يصلان إلى حد الكراهية نحو خالتها التي أثارت هذا الشعور في الرجل الذي أحبته بقوة، وانحبست العبرات في حلقها وهي تواجه حقيقة حبها لروم، محاولة أن تكون بمثل أمانته في الافصاح عن شعوره. ترى منذ متى أحبته؟ وشعرت أنها أحبته طول حياتها. فعندما دخل في عملية المقايضة لينالها كعروس له، حصل على صفقة رابحة، لكنه لن يعرف أن قطع الذهب القليلة التي استبدلها بها قد جلبت له حباً يفوق كل شيء.

وفرحت بالظلام عندما جاء، فقد أخفى رجفة شفتيها. كما منع روم من فهم النظرة التي رآها مراراً في أعين المخلوقات الحية في الغابة.

وعندما قلق على سكوتها قال هامساً:

«هل أنت نائمة؟»

فهزت رأسها وهي تخشى أن تفضح مشاعرها بصوتها، وشعرت بالحرج عندما سألها:

«وماذا عن وجهة نظر أنا؟ هل تميلين إلى التعاطف مع حاجتها للاستقرار، أو تعتبرين سعادة زوجها في المكان الأول لو كنت في مكانها؟»

ونسي أهمية الحذر في كلامه وقال بصوت خشن:

«طبعاً هذا سؤال أحمق أوجهه إلى شابة انكليزية متحررة، تعتبر الحرية أمراً هاماً، أليس كذلك؟»

ثم ضحك بهدوء وقال ساخراً:

«ماذا أفعل بك أيتها العصفورة الصغيرة التي احتفلت بحريتها الجديدة فطارت إلى عش النسور؟ كيف أراك تناضلين في عالمنا المعقد دون أن أرغب في حمايتك؟»

وساد السكون ولم تسمع زقزقة طائر أو حفيف ورقة، وحتى القمر كان يتوقف في محاولته الاختفاء وراء السحب خشية سماع ردها. وبسرعة انطفأ نوره تاركاً الغابة في حالة إنذار، سمعت من خلالها وقع أقدام فهمت أنها لجنود ولم تكن ماريبل بحاجة إلى أن تنطق بأية كلمة تخرج من حلقها التي توترت عضلاته، وظهرت قطرات العرق على جبينها بينما انتظرا اقتراب الأقدام منها. وسمعا صوتاً يقول:

«إننا نضيع وقتنا، فلا يمكن أن يخرج أحد من هذا الفرن حياً. انظروا كيف تعكس السماء حمرة الأشجار المحترقة».

ورد عليه زميله بحدة:

«ومع ذلك ستنفذ تعليماتنا، فإن الاثنين اللذين نبحث عنهما غجريان يجيدان فن البقاء على قيد الحياة».

وتوقفت الأقدام عند مفترق الطرق.

«اتجه أنت إلى اليسار وسأمشي أنا في هذا الطريق. افتح عينيك وأطلق الرصاص عند سماع أية حركة».

وسمعا صوت وقع أقدام أحد الجنديين وهو يبتعد عن المكان، ولم يجرؤا على التحرك وهما قابعان على الأرض بين الأعشاب، فإن أية حركة من إنسان أو حيوان كانت كفيلة بأن ينهال عليها الرصاص من بندقية الحارس القريب. وسمعا صوت ثقاب يحتك بعلبته، وأزاح روم الأعشاب ونظر من خلالها فرأى رجلاً أدار له ظهره وأحنى رأسه وأخذ ينفخ في كفيه، ولم تلحظ ماريبل أن روم قد تحرك حتى وقف خلف الرجل و يداه ممدودتان استعداداً للاطباق على عنقه. وأخذت ترقب في صمت المنظر الذي يدل على أنه متمرن على ممارسته. وانقض روم على الجندي وضغط بأصابعه الفولاذية على قصبته الهوائية حتى هوى إلى الأرض فاقداً الوعي.

وجذب ماريبل من بين الحشائش واتجها نحو السور مسرعين، وبفم جاف من الذعر أبعدت من ذهنها تصرف روم الجريء، وأطاعته وهي ترتعد من الخوف.

كان السور بارتفاع ثمانية أقدام، وثبتت فوقه الأسلاك الشائكة، وعلقت بها هنا وهناك قطع من قماش ثوب كدليل على محاولة شخص لم يسعفه الحظ بالفرار. ومال روم على أحد الحواجز، وبدد صمت الليل صوت المقص الذي استخدمه في قص الحاجز، وفجأة صاح جندي من ورائه قائلاً:

«توقف!»

استدارت ماريبل لترى ضوء القمر يسطع على البندقية

المصوبة نحوهما، كان الجندي الثاني قد عاد وأثار غضبه اختفاء زميله وزاد من إصراره الوحشي على الانتقام. وبهدوء وقف روم وكأنه يستسلم للقبض عليه وهو على وشك الهرب. لكنه واجه الجندي وأدار ظهره للفتحة التي أحدثها في السور، وأخذ يرفع يديه فوق رأسه. حينئذ اطمأن الجندي، وفي تلك اللحظة بالذات، رفع روم المقص وصوبه بسرعة الصاروخ نحو رأس الجندي، فضغط الجندي باصبعه على زناد البندقية في الوقت الذي سقط فيه على الأرض. واخترقت الطلقة كتف ماريبل.

وكانت الدهشة هي الغالبة على انفعالاتها العديدة وهي ترقب الدم يسيل من جرحها وهمست قائلة لروم وعيناه المشدوهتان تمران على وجهها الحزين:

«أصبت بالرصاص يا روم».

وفي خلال الساعة التالية أفاقت مراراً على أحاسيس مختلفة تركتها في حالة استرخاء تامة. فمن خلال ضباب إغمائها شعرت بذراعين تضمانها في حنان كبير وتحملانها بسرعة عبر الأرض الوعرة، وبعد ذلك سمعت أصواتاً كثيرة تتكلم باهتمام، وشعرت بلمسة سحرية تمس شفتيها قبل أن تسلمها الذراعان اللتان كانتا تحملانها إلى يدي شخص غريب. وكانت تسمع صفيراً مستمراً في أذنيها مصحوباً بعجلات تدور مسرعة وهي تنقلها إلى أماكن مجهولة. وقبل أن يطبق عليها الظلام تماماً، رأت أشخاصاً بزي أبيض وشمت رائحة المخدر وسمعت صوتاً يقول لها صاحبه ليطمئنها:

«اهدأي يا عزيزتي، فلم يعد هناك ما يخيفك لقد وصلت إلى السماء».

٩ ـ الشك القاتل

كانت صوفي موجودة لتحيي ماريبل، عندما فتحت عينيها في غرفة صغيرة فيها سرير واحد، ومقعد، وصوان قصير فوقه مزهرية مليئة بورد ناعم وقرنفل نفاذ الرائحة. ولفتت الألوان الزاهية نظرها. ولئوان قنعت بعدم التفكير، بل سعدت بمشاعرها الجديدة التي تجول في خاطرها مثل الاطمئنان والحرية.

«كيف حالك يا ماريبل؟»

وبدد صوت خالتها شعورها بالراحة والرضى، ودفع بالعبوس إلى جبينها وملامحها، وكان المفروض أن تسعد لرؤيتها. لماذا إذاً ارتجف قلبها فجأة وكأنه يذكرها بشيء لا ترتاح إليه؟ ولماذاتشعر بغريزة الرغبة في إخفاء مشاعرها، كما يستدل ذلك من ردها المضطرب؟

«أنا بخير...أين روم؟ هل هو بخير؟»

وابتسمت خالتها وقالت:

ذهب ليستريح ويصلح من هندامه»

وانحنت الخالة على السرير لتصلح الوسائد. وأعطت ذلك إهتماماً كبيراً كما لو كانت تبحث عن شيء يشغل يديها المرتعشتين.

«ظل بجوار فراشك طيلة الليل وكان قلقاً عليك. كنا نحن الاثنين قلقين عليك.»

وأغمضت ماريبل عينيها لكنها قاومت رغبتها في النعاس لتسأل:

«هل سيعود؟»

وطمأنتها صوفي وهي تربت على يديها الممسكتين بالغطاء:

«طبعاً يا حبيبتي، أقنعناه بأخذ قسط من الراحة بعد تأكيدالطبيب له بأن منظره الذي يشبه منظر الشريد الملتحي ذي العينين الحمراوين لن يساعد على شفاء أي مريض.لذا عودي إلى نومك وأضمن لك أنك ستجدينه بجوار سريرك عند استيقاظك».

كانت ماريبل تعرف أن خالتها كريمة لكنها كانت دائماً كذلك. ولكن عندما انقشع ضباب الهذيان الذي يربك تفكيرها، استطاعت أن تطمئن بال صوفي بأنها تفهم الموقف بينها وبين روم، وتقنعها بأنها لا تعتزم أن تسبب لها إحراجاً. ولكنها ودت لو رأته مرة أخرى لتطمئن عليه. وبعد ذلك غلبها النعاس قبل أن تصل إلى قرار محدد. وتركت صوفي التي انحنت على سريرها تفكر في سبب الابتسامة المرتسمة على شفتي ابنة أختها.

أفاقت ماريبل بعد ذلك بمدة ووجدت الغرفة يغلفها الظلام وكان بها مصباح يرسل نوره على غطاء السرير وعندما تحركت ظهر لها شبح شخص كان يجلس بجوار الحائط واقترب منها وانحنى فوقها بقلق ظاهر، ولما عرفته ابتسمت وقالت:

« روم...!»

ورأت فيه تغييراً حيرها لكنها أبعدته عن ذهنها، ولم تفكر إلا في وجوده بجانبها بوجهه الشاحب وجاذبيته الطاغية شأنه في ذلك شأن كل سكان الحياة الطبيعية المفتوحة.

وابتسم لها معبراً عن ارتياحه وكأن عبئاً ضخماً قد ألقي عن كاهله. وأمسك بيدها بحنان وجال بنظره على عينيها المندهشتين وفمها المضطرب.

ارخت ماريبل نظرها وبدت وكأنها طفلة معاقبة مغلوبة على أمرها. قال روم الشيء نفسه في الليلة السابقة لكن بصورة أقل جدية. قالها بطريقة تدل على التبرم الذي حاول إخفاءه. لكن ماريبل شعرت به بالرغم من محاولته. فقد حضر سريعاً ليراها وهو في طريقه إلى مقابلة بعض أصدقائه. الأمر الذي كان يتكرر كثيراً كلما تحسنت صحتها. وكان في زيه الحضري يظهر أناقة باردة، مما أبرز بوضوح الحاجز الذي أقامه خجلها. وعندما ردت على تحيته بهمس مضطرب قطب جبينه وظهر الفرق كبيراً بين ملامحه السمراء ولون قميصه الفاتح.

وعندما سحب كرسياً ليجلس بجوار سريرها سألها:

«هل من شيء يقلقك؟»

شعرت بعينيه تتركزان على فمها الذي أخذ يرتجف. ثم أخذ يداعبها بقوله:

«تعاني العصفورة الصغيرة من نوبة غضب لأن جناحيها قد قصا مؤقتاً. أليس كذلك؟ يجب ألا تشعري بالغيرة لأن أصدقاءنا يحتفلون بي وبصوفي. انتظري حتى تصل إلى فينا وهي مدينة خلقت من الحب. حب الموسيقى، وحب الفن وحب المحبين. هناك سأعوضك كل ما تتوقين إليه».

وانتظر متوقعاً أن تعود لطبيعتها الثائرة. إلا أن قلبها الحزين رفض فكرة الحوار اللفظي، واقتصرت على الردود المقتضبة الباردة. فقالت وعيناها مسبلتان:

«إنني لست حاقدة قط».

وبخفة حركته المعهودة هب واقفاً.

«إذاً ما هو السبب في تصرفك مثل الطفلة الغاضبة؟»

قال ذلك وقد أمسك بذقنها بين أصابعه القوية فاضطرت أن تقابل نظراته الثاقبة بعينيها وقالت وهي خائفة من نبض أصابعه على جلدها:

«أشعر بالحنين الى الوطن، أريد العودة إلى انكلترا حيث الحياة المنطقية وراحة البال».

وانفصم الاتصال بينهما عندما ترك ذقنها تاركاً هوة من الصمت لا يمكن ملؤها:

«هل تكرهيننا جميعاً لهذه الدرجة؟»

ولفترة طويلة ساد الصمت بينهما. ثم بدون أي تعليق آخر، خرج من الغرفة تاركاً إياها لتدفن وجهها في الوسادة، وتبكي وهي تواجه وحدها آلام نضجها الجديد.

وقلقت صوفي من الصمت الطويل ورأت أن العلاج هو أن تتظاهر بالوجه البشوش والتصرف المرح وهي تزف إلى ماريبل ما اعتبرته خبراً ساراً:

«إن الطبيب يوافق على سفرك إلى فينا غداً».

وراقبت صوفي بقلق رد فعل ماريبل. وعندما لم تسمع تعليقاً على عبارتها عضت على شفتيها وأعادت الكرة قائلة:

«وعدنا روم بإعطائنا شقته في فينا. فكما تعلمين كان المفروض أن نقيم مع بعض أصدقائنا، ولكن بما أن منزلهم صغير صمم روم على أن تستخدم شقته حتى تكوني مستريحة. إنها لا بد ستعجبك، فهي مريحة وكاملة وقريبة من المحلات التجارية».

فرحت صوفي عندما لاحظت في عيني ماريبل حيوية تنم عن حب استطلاع يقرب من عدم تصديق ما سمعته وقالت:

«هل لروم شقة في فينا؟»

«نعم، اتخذ فينا مدينة مختارة له. فينا هي التي احتضنته. يقول إنها المكان الوحيد الذي يرتاح إليه إذا قرر أن تكون له جذور ويستقر. وإذا ترك الأمر لأهل فينا فلا بدأنه يبقى في مدينتهم إلى الأبد. ولكنهم ينتظرون حفلاته النادرة كما لو كان بطلاً مغواراً.فمن من الناس لا يفرح بأن يضع يده على نبض جمهور ذواقة مثل أهل فينا؟»

وهزت ماريبل رأسها وهي لا تستطيع أن توفق بين الصور التي تعرفها عن روم وتلك التي رسمتها خالتها له.فعندما كانا في القبيلة تساءلت لماذا لم يتحف عشيرته بحفلاته الغنائية.لكنهم أفهموها بأنه كقائد لهم لا يستطيع أن يكون تحت تصرف نزواتهم. فالظروف وحدها هي التي اضطرته لأن يقوم بهذا الدور أمام الأجانب. أما هنا فهو ملك نفسه. وأخيراً قالت صوفي وكأنها تتذكر شيئاً عابراً:

«استدعى روم فجأة إلى فينا وطلب مني أن اعتذر لك نيابة عنه لعدم مروره عليك.وأكد لي أنه سيعد الشقة لتكون جاهزة لاستعمالنا عندما نلحق به غداً.»

وخرجت الكلمات من بين شفتي ماريبل المطبقتين قائلة:

«أريد العودة إلى وطني.»

أكدت ماريبل أنها لن تجد في فينا غير التعاسة، وهي تعاسة وجودها مع روم الجديد، روم الغريب ذي القدرة على الاندماج في أي مجتمع يجد نفسه فيه. أما روم القديم الذي عرفته وأحبته فقد تغير. بينما تعاني هي من وعوده التي أكدها لها حين قال: سأعوضك عن كل ما تفتقدينه. بدون أن يدري أن كلامه هذا يدمي الجرح الذي حدثه لها باعترافه بحب صوفي. فلا شيء في الدنيا يعوض فقدانها

إياها، انه الرجل الذي اعتريته في نوبات هذيانها وأحلامها، زوجاً لها!

«ما زلت ضعيفة يا عزيزتي، تحتاجين لتمريض جيد ونقاهة طويلة قبل أن تفكري في السفر إلى انكلترا. هذا إلى جانب ما يترتب على ذلك من وحدتك هناك. في وسعي أن أصحبك إلى هناك لولا أن لي عملاً في فينا لا يمكن تأجيله. أرجوك يا ماريبل لا تتخذي قرارات حمقاء.»

ولم تغب عن ماريبل الرجفة التي بدت في صوت خالتها ولا نعومة نظراتها الحالمة وهي تتكلم عن العمل الذي ينتظرها في فينا. ولا شك أن روم كان المقصود بذلك. أنه هو العمل الذي تحدثت عنه. وضغطت على نفسها لتواجه الواقع. وهكذا وجدت القوة لتقرر أن تمضي مع المهزلة إلى آخر مداها المرير.

وحفاظاً على سمعتها وكبريائها رأت أنها لا تستطيع أن تهرب إلى انكلترا بمشاعر جريحة. وعندما شعرت أن صوفي تكاد تكتشف سرها بلعت ريقها بصعوبة وقالت:

«أنت على صواب كعادتك دائماً يا خالة صوفي، يجب أن أبقى هنا لفترة على الأقل، فأرجو أن يكون حسابك في البنك بخير، فإني بحاجة إلى ملابس داخلية وخارجية. وبما أني مفلسة فعليك أن تعاونيني إذا أردت ألا تخجلي من ظهورك في فينا مع ابنة أخت معدمة.»

وردت عليها ضاحكة وهي تقول:

«ليست هذه المشكلة، فكل ما لدي هو ملكك يا عزيزتي، فإني أتوق إلى مرافقتك في رحلة الشراء التي ستقومين بها.»

مرّ أسبوعان قبل أن تقرر صوفي أن صحة ابنة أختها قد تحسنت بالقدر الذي يسمح لها بالخروج لشراء لوازمها. وفي تلك الأثناء كانتا

قد استقرتا في الشقة التي أعدها روم لها، وفيها توثقت علاقات الصداقة بينهما. ففي أثناء النهار اعتادتا الخروج لرياضة المشي على الأقدام في المتنزه القريب. وفي المساء كانتا تتجاذبان أطراف الحديث وتضحكان، أو تسمعان الموسيقى في هدوء وألفة. وعلى مر الأيام فهمت كل منهما الأخرى تماماً. وحاولت ماريبل أن تعتذر على إفسادها خطط التنظيم التي وضعتها خالتها. لكن الخالة لم تحب أن تلوم ماريبل نفسها على ذلك فقالت وهي تبعد هذا الموضوع عن تفكيرها:

«ربما كان الأمر لا مفر منه، فلا يستطيع الانسان أن يحيا إلى الأبد في حالة عدم الخلا قرار، ولم يكن لي حيلة في ذلك.»

وأصرت ماريبل على الوصول إلى المزيد من الايضاح، لكن صوفي لم تتشجع على أن تستدرجها ماريبل في الحديث. فبابتسامة هادئة قالت:

«لعلك أسديت لي خدمة كبيرة. ولكن الوقت وحده هو الذي سيثبت رأيي، لذا لن أقول أكثر من ذلك.»

ولم يريا روم كثيراً سواء أكان ذلك عمداً من جانبه أو بسبب كثرة أعماله، ولم تعرف ماريبل الحقيقة. وكان في غيابه راحة لماريبل التي لم تتحمل وجودها في نفس الغرفة التي هو فيها مع صوفي وهما يتهامسان لبعضهما، وكأن بينهما أسراراً. كما كان حديثهما تتخلله كلمات التدليل التي تدل على مشاعر مكبوتة حرصاً على التقاليد. وكانت مقابلتهما محرجة بالنسبة لها ومؤلمة خاصة وأن روم كان يحب أن يدفع حمرة الخجل إلى وجنتيها عندما يحاول أن يكون لطيفاً معها ويوليها هي الأخرى جزءاً من اهتمامه.

وكانت أعصابها متوترة إلى أقصى حد عندما وجه إليها كلاماً أشعرها بأنه يعتبرها كالطفلة الصغيرة. وكانت صوفي قد استأذنت لتدخل إلى المطبخ لاعداد القهوة وبدد سؤاله الذي ساد بينهما:

«والآن وقد تحسنت صحتك يا عزيزتي، هل تشعرين بالرغبة في الخروج للعب قليلاً؟»

وشعرت كأنه يقارنها بخالتها ذات المظهر الشاب الذي يثير قوامها وحركاتها الرشيقة تعليقات الناس. فبجانبها تشعر بضآلتها وحرجها وعدم نضجها، أو بعبارة أخرى تشعر أنها لا تستحق إلا الرثاء. لذا رفعت رأسها معبرة عن غضبها وقالت:

«إنني لست طفلة.»

فرفع حاجبيه من الدهشة، لكنه تمهل حتى انتقى سيكاراً ليدخنه ثم قال ببرود:

«لم أعتبرك طفلة حتى الآن.»

وتزايد غضبها ولم تستطع السيطرة عليه، وهبت واقفة للهرب من الغرفة، لكنها لم تفعل رغبة منها في إيلامه. وكان ينظر إليها عندما استدارت على عقبها وقالت:

«إنني أكرهك فأنت أكثر الرجال الذين صادفتهم عجرفة. ورأي أن خالتي أفضل منك وأنك لا تستحقها.»

بالرغم من جودة المحلات التجارية في فيينا، إلا أن صوفي كانت تعرف خياطة متقاعدة تحب أن تمارس مهنتها بتصميم الملابس وحياكتها لعدد من الزبائن. وبما أن كل الأبواب كانت مفتوحة أمام صوفي فلم يكن من الصعب عليها أن تحدد موعداً مع كريستا التي يقع محلها في شارع قريب من شقتها. وبالطبع كانت ماريبل

تقوم بشراء معظم لوازمها الداخلية من المحال القريبة، لكن حماسها كان كبيراً عندما صحبت خالتها إلى منزل السيدة العجوز التي اعتادت أن تتفحص قوام التي ستحيك لها عندما تصافحها. وقالت كريستا بجدية:

«لا أستطيع مقاومة تحدي كل منكما للأخرى، فإحداكما الساذجة والأخرى المتحذلقة.»

وابتسمت صوفي وقالت:

«حسناً، طالما أن حماسك يفيدنا: كما تعرفين تحضر حفل الأوبرا أكثر نساء العالم أناقة ولديّ سبب وجيه أريد من أجله أن نبدو على أحسن وجه. أتستطيعين إعداد ملابس لنا؟»

فضحكت الخياطة وقالت:

«بكل سرور...»

ثم دقت الجرس لتستدعي مساعدتها وقالت لها:

«ارشدي السيدتين إلى الغرفة التي نحتفظ فيها بالأقمشة. ثم سأحضر بعد ذلك لأرى اختيارهما.»

وأخذتهما الفتاة إلى الغرفة. حيث كانت هناك أمتار من القماش، معلقة على مشاجب لتظهر جمالها ولتعطي الزبائن الفرصة للمسها والاعجاب بها. ولما كانت ماربيل متضايقة بسبب إرغامها على شراء ثوب لمناسبة قررت ألا تحضرها، لذا تراجعت عندما عرضت عليها خالتها قطعة من الحرير الخام.

«ألا ترين أن هذا القماش رائع يا ماربيل؟ إننا مرغمتان، حسب التقاليد، على ارتداء اللون الأبيض لكن لا تقلقي، فاللون يناسب لون بشرتك، أما أنا بشعري الفاتح ولوني الشاحب فسأبدو فيه كالشبح

الكالح.»

وحاولت ماربيل أن تغير الموضوع فقالت:

«هل تتضايقين إذاً...»

«إذا قررت عدم الذهاب الى الحفل؟ نعم بلا شك سأتضايق...أولاً أرفض الاستماع لأي أعذار تقدمينها، فقد تقت سنوات طويلة لمثل هذه الفرصة، وستفسدين ليلتي بلا شك إذا رفضت الحضور. كما أن روم هو الذي سيأتي لنا بالتذاكر ليس من الذوق تركها له، خاصة وأنها مطلوبة جداً.»

وأخيراً اعترفت بهزيمتها فقد كانت خالتها سيدة صلبة الرأي، ومع ذلك كانت في تلك المناسبة بالذات أكثر إلحاحاً عن عادتها في تنفيذ رغبتها.

١٠ ـ انتصار الماضي

أخذت ماريبل تجول في الشقة وهي تتعجب من عدم وجود دليل فيها عن عمل روم، وشعرت أن الغرف تندب، كما تندب هي، غياب شخصيته القوية عنها. وأمسكت بإحدى التحف القليلة الموجودة بالشقة، وأخذت تتأملها وهي تنتظر خالتها حتى تخرج من غرفتها، حيث كانت ترتدي ملابسها استعداداً لحضور الحفل. أما هي فأنتهت من زينتها وشعرت من صورتها في المرآة أنها أجمل مما بدت من قبل. كان ثوبها من الحرير الذي يهمس بطياته لحناً حزيناً حول كاحليها عندما تخطو، أما نصفه العلوي، فترك ذراعيها عاريتين والتف حول كتفيها يغطي أثر الجرح الذي سببته الرصاصة. لكنها كانت تعاني من جروح أعمق منه، جروح قلبها المرهق من كثرة التمثيل والخداع. وكان شعر ماريبل مصففاً بطريقة جميلة ومشبتاً بمشابك من اللؤلؤ مثل لون بشرتها. لكن عينيها كان ينقصها البريق.

وضعت التحفة من يدها وقطبت جبينها. وكان هناك موضوع تريد مناقشته مع خالتها قبل وصول روم فبدت متضايقة من ايصال الملابس الذي عثرت عليه ملقى بجوار سلة المهملات. وعندما قرأت ما فيه هالها الرقم المذكور. أما ما أقلقها أكثر تلك العبارة المكتوبة على الايصال وتفيد أن المبلغ قد سدد بمعرفة روم. كانت خالتها عند الكوافير حين عثرت على الايصال وعند عودتها دخلت إلى غرفتها لتستعد للحفل ولم تسنح لها الفرصة لمناقشتها.

سمعت ماريبل صوت الباب يفتح، فالتفتت وهي متحفزة

باستلتها إلاّ أن الكلمات تعثرت على شفتيها بسبب إعجابها بخالتها. وضعت كريستا يدها على الصفات التي تفتقر اليها صوفي. وبينما وجهت اهتمامها الى أناقة ثوب ماريبل، عكست القاعدة في ثوب صوفي وجعلتها تبدو متألقة. كان مصنوعاً من الدانتيل الأبيض وله أكمام طويلة محبوكة على ذراعيها وخصر نحيل يعلو تنورة متسعة. أما الياقة فكانت توحي بالبراءة لارتفاعها نحو قسماتها الجادة مثل ياقة الراهبات. وشعرها خالياً من المشابك ومصقولاً كالحرير. وكانت السعادة تشع من عينيها مثل الطفلة التي تحضر أول حفلاتها، أو كالشابة التي تستعد لأول موعد غرام أو كامرأة في قمة الحب. وسألت ماريبل:

«ما رأيك فيّ؟»

«رائعة!»

ودق الجرس فضحكت صوفي واتجهت الى الباب واثقة أن القادم روم. لكن ماريبل قاطعتها:

«انتظري».

ولم يكن هناك وقت لنقاش طويل إلا أنها كانت تتوق لمعرفة الحقيقة، فقالت:

«عثرت على هذا... وعليه اسم روم، ولا أفهم شيئاً».

وبالكاد نظرت صوفي إلى الايصال، ولم ترد أن تؤجل السعادة المرتقبة فقالت:

«كنت أعتزم أن أخبرك بأمر الايصال لكني نسيت... صمم روم على الدفع، لكني لم أفهم ما يعنيه بلفظ الدوطة، أي بعض العملات الذهبية الخاصة بك والتي يحتفظ بها عنده باسمك».

وبحركة سريعة فتحت الباب وأدخلت روم. وفي لحظتها عليه نسيت روح العداء التي قابلته بها ماريبل عندما التقت نظراتها، وانتبهت إلى أن كل ملابسها قد سددت بالنقود التي كانت ثمناً لها.

ساعدها روم في ركوب السيارة ووصف للسائق المطعم الذي سيتعشون فيه. وعندما تحركت السيارة أخذ يتفحصها في تمهل، فنظر إلى وجه ماريبل الثائر، ثم إلى وجه صوفي السعيد وأناملها المرتعدة وهي تحاول تثبيت الوردة التي قدمها لها روم.

«دعيني أساعدك».

وثبّت الوردة بحنكة المجرّب الخبير، ثم التفت إلى ماريبل بنظرة تساؤل، لكنها كانت قد ثبتت زهورها بنفسها، وهي زهور البرتقال التي تذكرها بحفلات العرس. رفضت استعداده لمساعدتها والتقت نظراتها إلاّ أن العينين الرماديتين انخفضتا أمام نظرة الحيرة التي في عينيه، وبدا الضيق في صوته عندما تجاهلها وأخذ يتحدث مع صوفي:

«جاء اليوم يا عزيزتي الذي طالما انتظرته، فلا داعي لسؤالك إذا كنت سعيدة».

ضحكت صوفي ضحكة رنانة وقالت:

«نعم أنا سعيدة، فهناك سحر في الجو الليلة. ألا تشعر به؟ فستتألق النجوم ببريق ساطع، وستطوف الموسيقى بأجنحة الملائكة، وستفرح فينا كما لم تفعل من قبل».

ومدت يدها لتغطي يد روم وقالت:

«أرجو لك السعادة أيضاً يا عزيزي روم».

ونظرت ماريبل من النافذة دون أن ترى شيئاً. وكان باعة الورد يعرضون سلعتهم الجميلة والناس يصطفون خارج المسارح انتظاراً

للدخول. وسألت نفسها كيف ستقضي السهرة التي تحمل الكثير في طياتها بالنسبة للاثنين اللذين معها. وكأن اتفاقاً قد تم بينهما على المقابلة في فينا في ليلة الحفل. لقد انتهى فراقهما منذ أسابيع، ولكنهما فضلا لأسباب عاطفية أن يتقابلا بهذه الصورة الخيالية حتى تظل تلك الليلة راسخة في ذاكرتها. واغتاظت ماريبل وضغطت على عواطفها فبدت وكأن الأمر لا يهمها.

ولم تذكر شيئاً من الحديث الذي دار في المطعم. مع أنها اشتركت فيه إلاّ أن ردودها الآلية قد أثارت روم حتى سألها:

«هل حديثنا يثير مللك يا ماريبل؟ أم أنك على وشك الدخول في إحدى نوباتك التي اعتدنا عليها».

دهشت لقوله حتى أن الملعقة سقطت من يدها. وكادت ترد عليه عندما ظهر شخص بجانبها يلبس نفس ملابس السهرة التي يرتديها روم. حلة سوداء ورباط عنق أبيض، وانحنى والتقط الملعقة قائلاً:

«اسمحي لي يا عزيزتي»

ثم استقام ببطء وابتسم لصوفي التي همست، وقد امتقع لونها:

« ستيفان! أحقاً أنت يا عزيزي؟»

وهب روم واقفاً وابتسم وألح على الرجل بالجلوس معهم، فجلس لكنه لم يتكلم مكتفياً بسعادة النظر إلى الجمال الذي بجواره. وسأله روم:

«هل تناولت طعامك؟»

فقال ونظراته عالقة بصوفي:

«كلا... حجزت مائدة وطلبت طعاماً لشخصين».

وجالت الدموع في عيني صوفي؟ عندما مد يده وأمسك بيدها ثم

سألته:

«هل جئت إلى هنا بعد كل هذه السنين؟»

وأومأ برأسه وقال:

«جئت إلى فيينا كل عام، لمدة عشرين سنة، لأنتظر فتاة في هذا المطعم، وعلى نفس المائدة، لكنها لم تحضر. إن الخدم ينظرون إليّ ويظنونني مجنوناً خانته تخيلاته حتى اعتقد أنه سيقابل المرأة التي يحبها في يوم من الأيام. فهلا اصطحبتني إلى مائدتنا لأثبت لهم خطأهم؟»

وافقته والانفعال يخنقها، كما كانت شاردة الفكر بحيث لم تجبها بكلمة قبل أن تتركها وتختفي من أمامها:

زادت دهشة ماريبل عندما ابتسم روم وجلس على المقعد الذي تركته صوفي. وقالت له متسائلة:

«إنني لا أفهم شيئاً. ألا يهمك انصرافها مع غريب؟»

فرد عليها قائلاً:

«هل ستيفان غريب؟ لقد كان الاثنان حبيبين عندما كانت صوفي فتاة يافعة، وقبل أن يفر ستيفان إلى إنكلترا لينضم إلى سلاح الطيران رجاها أن تتزوجه، لكنها رفضت أن تترك والديها بمفردهما في وارسو. وهكذا افترقا على وعد اتفقا عليه، وهو أن يلتقيا في هذا المطعم في ليلة الأوبرا بعد الحرب. وإذا لم يستطع أحدهما الحضور، يحضر الآخر حتى ينجحا في الالتقاء. ولكن لم تسر الأمور كما يشتهيان، فعندما انتهت الحرب كانت صوفي تساعد الناس ولم تستطع مغادرة البلاد بالرغم من تيسير سبل الهرب أمامها، وهكذا حضر ستيفان إلى فيينا كل عام على أمل رؤيتها.»

وفهمت ماريبل رد خالتها عند اعتذارها لافسادها مشاريع المنظمة بقولها:

«ترين أنه ليس لدي أي اختيار...»

فكم يسهل عليها الآن أن تفهم حيرة خالتها إذ كان الاختيار بين سعادتها وسعادة أنصارها. فعندما تذكرت ظلمها لخالتها غمرها الخجل.

ثم خرجت من صومعتها بحواسها منتبهة. وكان العازفون يعزفون لحناً راقصاً، والمطعم يعج بالناس وكلهم على استعداد للاستمتاع بليلتهم. وداعب النور الخافت ملامح روم وأظهر فيه مرح عينيه. وتصاعد دخان السيكار ولفها في ألفة تنذر بوعود جعلتها ترتعد. كما شعرت أن روم مستمتع بصحبتها حين قال لها:

«يحسن أن نتم كلامنا خلال العشاء لأن هناك أشياء كثيرة تريدين السؤال عنها، لكني لا أرغب في قضاء السهرة في الحديث.»

أما ماذا يريد بدلاً من الكلام فلم يفصح عنه. ولكن كانت لهفتها على إلقاء أسئلتها كبيرة فقالت لروم:

«قلت إنك تحب صوفي ومع ذلك لا تعترض على أحقية ستيفان فيها، فمن المحتمل أن تتحول مشاعرها إلى غيرك. وكما تعلم فالناس يفعلون هذا أحياناً.»

اهتزت شفتاه وقال:

«عبّرت عن رأيي منذ بضعة أيام وقلت أنني لا أستحق خالتك لأنها أحسن مني، وأعترف أنني دهشت لتعليقك وقتئذ ولكن بعد قليل بدأت أفهم أن...»

وتوقف وهو يدرس وجهها، وكأنه يستطيع الوصول إلى أسرارها. ثم تابع كلامه:

«إنني أحب صوفي ولكنني لم ولا أعشقها».

وعندما أرخت أهدابها، امتدت يده لتمسك بيدها وقال:

«لا تخفي نفسك عني يا ماريبل، أريد أن تتحرر الليلة من كل أثر لسوء التفاهم بيننا. يجب أن يكون كل منا صريحاً أليس كذلك؟»

وأراد جانب منها أن يهرب من نظرته الخارقة، أما الجانب الآخر فقد كان غارقاً في اهتمامها به. وتمتمت قائلة:

«نعم، يدين كل منا بذلك للآخر».

«حسناً... إذاً أخبريني لماذا عندما حضرت لمصاحبتك الليلة قابلتني بنظرة ازدراء؟»

وشعرت بالحرج عندما أرغمتها نظرته على الاعتراف:

«لأن صوفي أخبرتني عن مصدر النقود التي دفعت ثمناً لثوبها. وكنت تعرف وأنت تدفع نوطتي، كما تسميها، مدى شعوري بالمذلة».

فاندهش وقال:

«لكن النقود هي ملكك. واحتفظ بها لك. فلماذا تشعرين بالمهانة؟ أليس من حق المرأة أن يدفع زوجها ثمن ملابسها؟»

فردت عليه وقد تولاها الغضب:

«كلا... إذا كان لا يطالب بحقوقه»

ولم يحاول أن يدّعي جهله بما تريد قوله:

«لن تغفري لي إذا طالبت بحقوقي، ما حدث تلك الليلة في منزل جان كان تجربة لا أريد تكرارها، تركي لك تلك الليلة كان من أصعب الأمور».

وحلقت فيه وهي تخشى أن تصدق ما قاله. فقد صمم أن يكون صادقاً حتى أنها لم تجرؤ على توجيه السؤال الذي كانت تتمنى أن

تسأله خوفاً من رده، لكنها كانت تتوق لمعرفة شيء بالذات. هل كانت رغبته فيها تلك الليلة بدافع الحب أم كانت تعطشاً مصدره غريزة الرجل؟

إلا أن حديثهما قطع قبل أن تجمع شجاعتها لالقاء السؤال. وتلاشت لحظة قول الحق، وتمنت ماريبل لو أبعدت صوفي و ستيفان عندما عادا إليهما والسعادة بادية عليهما. ولم يرحب روم بعودتهما أيضاً، لكنه وقف لهما احتراماً دون أن يبدو الضيق على ملامحه.

وكانت السعادة تشع من صوفي عندما اقترحت قائلة:

«يجب أن تذهب الى دار الأوبرا الآن حتى نصل قبل بدء العرض».

نظر روم في ساعته ووافقها على رأيها، وسرعان ما كانوا في طريقهم إلى دار الأوبرا.

كان السؤال الحائر ما زال حائماً بينهما مثل السحابة.

وعند وصولهم إلى دار الأوبرا كان المكان يعج بالأضواء والموسيقى والضحكات، وكانت فيينا زاهية الألوان تتأرجح بالمشاعر الفياضة، كما كانت المنازل القديمة تعج بالشباب والمرح اللذين ترحب بهما بزوار المدينة. تركت ماريبل و صوفي الرجلين في المدخل وذهبتا لتضعا وشاحيهما في غرفة حفظ الملابس. وكان الجو مفعماً بالاثارة والحماس الشديدين حتى أن الكلمات لم تعد لها ضرورة، وشعرتا بأنهما على حافة حدث كبير ومناسبة لا تحدث إلا مرة في العمر، وودت ماريبل لو انضمت للرجلين فوراً، إذ كانت تتوق لصحبتهما. أما صوفي فتلكأت أمام المرآة لتصلح من زينتها. وتلاقت نظرتها بنظرة ماريبل في المرآة وهي على وشك وضع أحمر الشفاه على شفتيها وسألتها:

«هل تأكدت من كل شكوكك يا عزيزتي؟»

فارتعدت ماريبل، كانت تشك دائماً في أن صوفي قد استنتجت أمر حبها لروم، لذا ردّت عليها قائلة:

«كلا لم أتأكد منها كلها».

وألحت صوفي قائلة:

«أيمكنني مساعدتك؟»

فردّت عليها ماريبل وهي تتفادى عينيها:

«لا أظن ذلك».

«جربيني ولا تخشي من الاعتراف بحبك لروم، فهو شخص رائع، لكني أفهم سبب مخاوفك من الحياة التي سيحياها إذا أصبحت زوجته».

فضحكت بدهشة وقالت:

«زوجته! لا أتصور أن يعترف روم بمثل هذه الحاجة، فهو رحالة اعتاد حياة الوحدة. والزوجة لن تضيف شيئاً اليه».

ثم وضعت صوفي أحمر الشفاه في مكانه وأغلقت حقيبتها قائلة:

«تفكيرك خاطىء. ظننتك تعرفين روم، لكني أراك مخطئة. فروم اعترف لي منذ سنين بسر لا يعرفه غير القليلين، وقد يكون استنتجه بعض المقربين من أفراد القبيلة لكنهم غير متأكدين».

واسترسلت قائلة وهي تغالب نفسها للكشف عن السر:

«يعتقد أنه ولد وعليه لعنة معينة، وهي أن يكون طريداً وشريداً ومحكوماً عليه أن يعيش بقية حياته والسماء لحافه والعجلات تحت قدميه. ألا ترين يا ماريبل أنه يتوق إلى بيت يستقر فيه وأسرة يعيش بينها؟ وهو شيء لا يتوقع أن يجده في القبيلة؛ فقد يكون شكله

كالغجر وسحره كسحرهم، لكنه ليس معتاداً غرائزهم. وإني على ثقة من أنه مع واحدة مثلك يستطيع أن يمد لنفسه جذوراً هنا في فينا ويعيش كما قدر له الله أن يعيش، أي بين أمثاله من الناس».

فالتفتت إليها ماريبل ونظرة ألم في عينيها وغالبت دموعها قائلة:

«هذه مجرد أماني تعبرين عنها يا خالة صوفي».

واستطردت تقول:

«إنه كرم منك أن تتمني لي نفس السعادة التي عبرت أنت عنها. لكن للأسف لا يمكن التحكم في القدر مهما حاولت ذلك. فأنا بالنسبة لروم مصدر مضايقة يريد الخلاص منه. نعم، إني واثقة من أن اهتمامه بي قد زاد في المدة الأخيرة، لكني لم أسمح لنفسي أن أنسى أن هذا التغيير هو جزء من الاسترضاء الذي يشعر بأنه يدين به لي».

ثم ابتعدت عن خالتها وعندما وصلت إلى الباب استدارت وألقت إليها بعبارة أخرى مريرة:

«بما أن هذه الليلة تعتبر آخر فرصة لهذا الاسترضاء، فأرجو أن تسمحي لي بألا أضيع أية دقيقة فيها...»

١١ ـ الليلة الخالدة

كانت دار الأوبرا من الداخل مثل قصور الروايات الخرافية. ومكان الأوركسترا مغطى بألواح خشبية تعطي اتساعاً للمسرح. المقصورات وحافة الصفوف العليا مزينة بعقود من زهور القرنفل الحمراء، كما كانت تزينها الشابات بملابسهن البيضاء، ويصحبهن رجال بملابسهم السوداء. وهن يخطرن كالدمى تحت الثريات البراقة.

وكانت الأوركسترا تتهيأ استعداداً للعزف عندما وصلت ماريبل إلى جوار روم وأدار رأسه نحوها بطريقة غريزية. ابتسامته التي وجهها إليها دافئة بددت شكوكها. نظر إليها دون أن يتكلم وقد نسي كل الجمال الذي حوله. وتعبيراً عن رضاه بما قرأ في وجهها، لف ذراعه حول خصرها وأخذ يرقص معها.

سعدت ماريبل بحضنه الذي كان خليطاً من الحلو والمر، ولم تدع تفكيرها يدور حول الغد بما يحمل من شعور بالوحدة والعذاب، بل قررت أن تنعم بكل دقيقة من الذكريات الحلوة التي تهيئها لها تلك الليلة. فإذا لاحت في نظرها سحابة من اليأس، فإنه لم يلحظها. إن الفم المرتعد والوجنتين الورديتين قد تكون علامات السعادة أو الألم. وأخذ قلبها يدق مع وقع الموسيقى وبدأ هادئاً، ثم اشتد تدريجياً حتى استسلم عندما اشتد ضغط ساعديه وامتزج قده القوي برشاقتها الرقيقة وأصبحا واحداً عندما أخذا يتحركان. ولم تخطىء خطاها مرة واحدة بفضل رقصه المتقن. وبعد عدة رقصات كانت تنساب كنور القمر على حلبة الرقص. ترك روم خصرها عندما سكتت الموسيقى،

لكنه ظل يداعبها وهو يقود خطواتها نحو مائدة عليها دلو مملوء بالثلج وتتوسطه زجاجة شراب. ولم يكن ستيفان و صوفي موجودين عندما أخذ روم يصب السائل الذهبي في الكؤوس، ولم يسمع أحد غير ماريبل النخب الذي قاله:

«في صحة الحب، يا عزيزتي، والوفاء والتفاهم».

والكأس بيده ينتظر ردها، وكأنه يطلب منها منحه الصفات الثلاثة، الحب والوفاء والتفاهم، ولكنه لم يتضايق عندما تمتمت بشيء لم يسمعه تماماً، بل شربت ما في الكأس بقلق جعلها تسعل، مما أقلق روم فأخذ يقترب منها ويقدم لها منديله الكبير المشبع برائحة التبغ وماء الكولونيا وأخذ الناس يتحركون حولها، لكن مائدتها كانت كقارب وسط بحر مضطرب عندما قرب شفتيه من أذنها وقال:

«دعينا نذهب حيث نكون بمفردنا...»

وللوهلة الأولى كادت ترفض، لكن تعبير وجهه أشعرها بأنه لن يقبل الرفض، لذا سمحت له وأعصابها مرهفة، أن يصحبها إلى الخارج. وبجوار الأوبرا يوجد منتزه كانت مقاعده مغلقة بظلام الليل. وعندما أخذا يتجولان في الحديقة خفت صوت الموسيقى حتى صمت تماماً. وكان صوت حفيف ثوبها هو الوحيد المسموع في سكون الليل. ولما تذكر أنها لا تتحمل جميع أنواع الأجواء قال:

«ليس معك وشاح، دعيني أعطيك سترتي».

لكنها رفضت وقالت:

«كلا... أشكرك، أشعر بالدفء».

أن لبس سترته يعتبر رفع كلفة محفوفاً بالخطر.

وشعر بالغضب لرفضها وقال بحدة:

«هل وصلت كراهيتك إلى حد كراهية ملابسي؟ إن سترتي لن تعضك وأكمامها الخالية لا ضرر منها. لماذا تتصرفين هكذا؟ قضيت أسابيع أحاول أن أكسر جمودك، لكنك تتباعدين من تقربي وتتهربين من مفاتحتي لك... هل يجري في عروقك دم أم ثلج؟»

وكان الأسهل أن تعتمد على الغضب لتستخدمه ضد جاذبيته الجارفة، ورغم أنها كانت مستعدة للاستمتاع بكل دقيقة من هذه الليلة، إلا أن عواطفها كانت تقاوم سيطرته. وشعرت أن القسوة هي الطريقة الوحيدة التي تثبت بها سيادتها عليه وعلى نفسها. فقالت ببرود:

«اتضح أن الصداقة بيننا أصبحت مستحيلة. لذلك انساني واتركني وشأني، فبعد بضعة أيام سأرحل وستنساني سريعاً بمجرد سفري».

«أنساك!»

وبسرعة احتضنها بين ذراعيه بغضب وكأنه يعاقبها، فلم تعد مخالب الأسد معسولة، كما لم تكن كلماته حانية بل قاسية.

«أتريدين أن أنسى أنك عروسي؟ أنسى الليالي التي قضيتها أنصت إلى همسك وأنت نائمة، وإلى صوت تنفسك. وأنا أكبح جماح مشاعري خوفاً من أن تكون رغبتي سبباً في تعاستي؟»

وأخذ يهزها حتى بدأت تلهث. واستمر في كلامه قائلاً:

«إنني أحبك أيتها المجنونة الثائرة، صورتك محفورة في قلبي، ومع ذلك تتكلمين عن نسياني لك؟»

وترك كتفيها ليضم جسدها الرقيق المرتجف بين أحضانه ويقول:

«أنساك! بل اسمحي لي أن أحصل على شيء سأذكره طول حياتي».

وكان تصرفه تصرف الغجري الجريء، الذي انتزع استجابتها من

قرارة نفسها. وانسابت المشاعر بينهما وأرسلت هزات في عروقها تؤكد الاستجابة لجاذبيته الطاغية. ففي أول الأمر كان غاضباً ومندفعاً برغبته في الانتقام منها، بحيث لم يفطن إلى يقظة استجابتها له. وعندما لم تبد اعتراضاً، اعترته الدهشة، وحين لم يجد أي أثر للمقاومة، بل ظلت مستسلمة له، تمتم بكلمات هامسة تنم عن سعادته المشوبة بالدهشة. وأقبل عليها بعاطفة قوية يثبت بها انتصاره الذي طال انتظاره له. وكان يشعر بقلبها وقد أخذ يرتجف كالطائر الحبيس. وعندما استجابت له، شعرت بحرارة تنساب في داخلها وتطمئن حواسها بأنه لن يجدها أقل منه لهفة عليه. لذا سعدت بحنانه وذراعيه اللتين كان في إمكانهما القسوة عليها، لكنهما كانتا تترفقان بها. وقال بصوت عميق هادئ:

«أنت لي لآخر يوم في حياتي...»

وترك أصابعه تتغلغل في شعرها وتنثر المشابك منه حتى انساب كالزئبق بين أصابعه، ولما ارتاح لهذه المداعبة ضحك ودفن وجهه في خصلات شعرها. فشعرت بالأرض تميل من تحت قدميها والفكر يتوه منها. وتركزت حواسها في ضمة ذراعيه وعمق صوته وكلها مشاعر أكدت لها أن الحلم الذي كانت تعتبره مستحيلاً، والرغبة التي لم تجرؤ على التفكير فيها، أصبحت حقيقة.

وكانت طيعة بين ذراعيه، وسعيدة، عندما وجدا أخيراً وقتاً للكلام فقالت بدهشة:

«إنني لا أصدق هذا...»

وكان يقف وراءها يطوق خصرها بذراعيه حين قال وهو يكشف عن عقيدة عشيرته المتبناة:

«إننا لا نستجوب القدر، فبالنسبة إليّ أكتفي بوجودك بين ذراعي أيتها الأوزة البرية الصغيرة، لقد صدقت أسطورة الغجر، فمهما فرت من صائدها فإنها تعود إليه».

إن روم هو صائدها الذي استحوذ على قلبها. واستدارت بين ذراعيه لتداعب خديه بكفيها، وتأثر عندما اعترفت ببساطة وصدق:

«إنني أحبك جداً يا حبيبي، فمنذ لقائنا الأول أردت أن أقاوم هذا الحب، ولكن في ليلة زفافنا تأكدت...»

«هل حدثت حقاً ليلة الزفاف هذه؟»

قال ذلك وقد أمسك كل أصبع من أصابعها ولمسه بشفتيه.

«عروس متمنعة تعترف بحبها متأخراً، وعريس يصمم ألا يصبح زوجاً وألا يتعمّد أن يعادي عروسه».

ثم همس مستطرداً كلامه:

«إنني أعدك بشيء يا حبيبتي...»

«ما هو؟»

«أعدك أن تكون ليلة زواجنا الثانية مختلفة تماماً».

وكانت ما تزال تشعر بالخجل منه، فلم تستطع النظر إليه، لذا تمادى في مداعبتها وقال:

«سيكون لنا أطفال كثيرون... أولاد سمر يلعبون في الغابات مع أصدقائهم الغجر. كما ستكون لنا بنات جميلات تسحرن قلوب أهل فيينا بحسنهن الانكليزي».

وشعرت بأنه يريد منها أن تسأله سؤالاً خاصاً:

«وأين ستقيم أسرتنا هذه يا روم؟»

مالت عليه وانتظرت رده. فسواء أقاما في الشرق أو الغرب أو في

عربة غجر أو قصر، فكل ما تتمناه هو مكان بجوار قلبه.

وقال حالماً:

«في فيينا، وفي بيت لا يتحرك و أبواب يمكن قفلها، ونوافذ تطل على منظر لا يتغير إلا باختلاف الفصول».

ثم استطرد يقول بتنهيدة تبين شوقه الذي لم تره فيه من قبل:

«سيضم بيتنا كل ما أعتز به في العالم، وهو أنت يا حبيبتي...»

وانحنى عليها يعانقها بحنان، فلاذت به وهي تعرف تماماً ما يريد، وكانت راضية بمبادلته نفس الشعور، فإن ابن الطبيعة هذا لن يرضى أن ينتظر طويلاً، وستكون مستعدة عندما يحتاج إليها لتطمئنه بأنه لن يندم على الثمن الذي دفعه في عروسه.